الفصل الثالث

الغزل الحسى

الغزل الحسى بنوعيه الصريح الفاحش وغير الفاحش أكثر اتجاهات الغزل شيوعاً وكماً فى هذا القرن بخاصة وفى عصور الأدب العربى بعامة، وهو وإن عرفه الغزل العربى فى جاهليته وإسلامه إلا أنه لم يصل إلى ما وصل إليه فى هذه الفترة كثرة وصراحة وتطوراً . فالمرأة العربية الحرة لم تعد موضوعاً لهذا الغزل إلا فى القليل النادر وذلك لكثرة الإماء والجوارى والقيان وغزوهن المجتمع غزواً لم يشهد له المجتمع العربى مثيلا ، فتقدم هؤلاء الصفوف وتنحت المرأة الحرة جانباً[1] ، ولهذا أصبح الغزل بضاعة رائجة رابحة ، وفى هذا يقول عبد الستار الجوارى : « ولقد جاءت الحضارة فجعلت من المرأة متاعاً يباع فى الأسواق ، ويستطيع أن يناله من ينفق فيه المال ، وكثر الجوارى وبلغ عددهن فى بيوت الأغنياء والموسرين مبلغاً عظيماً ، وصرن يتخذن للغناء واللهو والعبث ، فهبط شأن المرأة فى الشعر وأصبح الحديث عنها عند أكثر الشعراء ضرباً من اللهو والعبث والمجون ، ولم تعد المرأة تثير فى النفوس تلك المعانى العميقة أو تلك العواطف المشبوبة . . . ولهذا السبب هبط الغزل من عليائه عند أغلب الشعراء ، ولم نعد نعرف فيهم عاشقاً خالط العشق قلبه ونفذ إلى قرارة نفسه إلا قليلا... وأصبح الغزل فى جملته تعبيراً عن لذة عابرة وشهوة طارئة لا تصل إلى طوايا النفس ولا تثبت على حال . . وهكذا كانت الحضارة جناية من بعض الوجوه على الغزل . . .»[2] . وإلى هذا المظهر السيئ للإماء وأثره فى الغزل أشار الدكتور طه حسين ولكنه مع هذا يدعو إلى القصد والاحتياط فى الحكم على نساء هذا العصر من حديث الشعراء أمثال بشار وأبى نواس وغيرهما، لأن الكثرة المطلقة من هؤلاء النساء لا تمثل المرأة العربية الحرة ، أو المسلمة الحرة ،

---

(١) راجع : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ١٤٥ .

(٢) الشعر فى بغداد ٢٠٧ .

وإنما تمثل الرقيق الذى كان يجلب إلى حواضر المسلمين فيتخذ منها تجارة ولهواً[١]. وهكذا كان هذا الصنف من النساء المائدة التى كان يأكل عليها شعراء الغزل الحسى فى هذه الفترة ، فأكثروا من تناول الأطعمة ، ينتقلون من لون إلى آخر إرضاء لشرههم وإشباعاً لمتطلباتهم . لقد لعبت المرأة ، جارية فى القصور وعند الأغنياء الموسرين ، وساقية فى الحانات والأديرة ، وقينة عند النخاسين والمقينين وعضواً فى مجتمع القرن الثانى ، دوراً كبيراً على مسرح الغزل حتى جعلت كثيرين من الشعراء يخلعون العذار ويتجردون من الحياء غير آبهين للدين تعاليمه وللمجتمع تقاليده ، فحولوا بذلك فن الغزل — فى أكثره — إلى مجون فاضح يتحرج الدارس من ذكر أكثره وتسجيله . كما لعبت المغنيات دوراً عظيماً فى الحياة الاجتماعية إذ نهضت بنصيب كبير من خدمة الغزل ونشره فى الناس[٢] . أما الجوارى الفاجرات اللائى كن يشعن ضروب اللهو والمتعة ويدفعن الشعراء إلى القول دفعاً فكن كثيرات جداً . ومن أكثرهن شهرة فى كتب الأدب وفى (الأغانى) بخاصة جوارى النخاسين وبيوت القيان التى سيأتى الكلام عليها بعد قليل . ومن أمثلة الفاجرات من غير بيوت القيان امرأة الشاعر « عمّار ذى كناز » واسمها « دومة بنت رباح » وفيها يقول أبو الفرج : «وكانت قد تخلقت بخلقة فى شرب الشراب والمجون والسفه حتى صارت تُدخل الرجال عليها وتجمعهم على الفواحش»[٣] . ومنهن الجارية (دُقاق) أم ولد يحيى بن الربيع ، كانت مغنية حسنة ، انقطعت إلى حمدونة بنت الرشيد ، وذكر أنها كانت مشهورة بالظرف والمجون فقيل إنها كانت تواصل جماعة يميلون إليها وترى كل واحد منهم أنها تهواه ، وفى (الأغانى) بعض أخبارها البذيئة[٤] .

ومهما يكن الأمر فقد كان من بين هؤلاء الجوارى عدد من المثقفات والأديبات والشواعر ، ففى أخبار محمد بن كناسة أنه كانت له جارية شاعرة مغنية يقال لها دنانير ، كان أهل الأدب يقصدونها للمذاكرة والمساجلة فى الشعر[٥]. وكان

---

(١) حديث الأربعاء (ط دار المعارف) ٢ / ١٠٤ — ١٠٥ .
(٢) انظر : تاريخ الشعوب الإسلامية — لبروكلمان (ط ١٩٤٩) ٢ / ٢٥ .
(٣) الأغانى (ساسى) ٢٠ / ١٧٥ .
(٤) الأغانى ١٢ / ٢٨٢ — ٢٨٤ .
(٥) المصدر السابق ١٣ / ٣٣٧ .

إبراهيم الموصلى يعلم الجوارى الغناء طمعاً فى رفع أثمانهن ، يقال إن أبا عيينة ابن محمد بن أبى عيينة هوى جارية اسمها (أمان) فأغلى مولاها ثمنها وجعل يرددها إلى إبراهيم الموصلى وابنه إسحق فتأخذ عنهما : فكلما زادت فى الغناء زاد فى سومه ، فقال أبو عيينة :

قلت لما رأيت مولى أمانٍ ... قد طغى سومه بها طغيانا
لا جزى الله الموصلى أبا إسـ ... ـحٰق عنا خيراً ولا إحساناً
جاءنا مُرْسلاً بوحى من الشيـ ... ـطان أغلى به علينا القيانا
من غناء كأنّه سكرات الـ ... ـحب يُصبى القلوب والآذانا[1]

وبعد . . . فإن هذه الطبقة من النساء هى التى شجعت جماعة من شعراء هذا القرن لأن يدلوا بآرائهم ويكوّنوا لهم فيها مذاهب خاصة ، لكثرة ما كانوا يشهدون ويمارسون من تهتك وخلاعة وفجور ، وهى أحكام لا تنطبق إلا على هذه الطبقة الوضيعة من النساء . فى الأغانى أن مطيع بن إياس مَرّ ببحيى بن زياد وحماد الراوية وهما يتحدثان فسألهما عما يتحدثان فأجابا : فى قذف المحصنات . فقال : أو فى الأرض محصنة تقذفانها ؟[2] . ولهذا نجده يدعو صراحة إلى خلع العذار فى الهوى ، ووصل القبيح[3] :

اخلع عذارك فى الهوى ... واشرب معتقة الدِّنان
وصل القبيح مُجَاهرًا ... فالعيش فى وصل القيان
لا يلهينك غيرُ ما ... تَهْوى ، فإن العمر فانٍ

حتى قال عنه الدكتور شوقى ضيف : « ربما كان مطيع بن إياس الكنانى هو الذى بدأ السطور الأولى فى صفحة هذا الغزل المكشوف بالكوفة »[4] . أما بشار

---

(١) المصدر السابق ٥ ١٧٠ .
(٢) الأغانى ١٣ / ٢٨٦ .
(٣) شعراء عباسيون ٧٦ .
(٤) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ٦٥ .

فقد قيل إن المهدى اتهمه برمى جميع نساء العالمين بالفاحشة لقوله[١] :

لا يؤيسنَّك من مُخبّأةٍ قولٌ تُغلِّظهُ وإن قَبُحا
عُسْر النساء إلى مياسرةٍ والصعب يمكن بعد ما جمحا

وكذلك كان يدعو أبو نواس إلى الجهر بهتك الستر وخلع العذار وعدم التحرج[٢]. أما الحسين الخليع فأفصح عن مذهبه بالأبيات التالية[٣] :

ألا إنما الدنيا وصال حبيب وأخــذك من مشمولة بنصيبِ
وعيشك بين المُسْمِعات مُمتّعاً بفنَّيْن من عَزْفٍ وشدْوٍ مصيب
ولم أر فى الدنيا كخلوةِ عاشقٍ وبَذْلةِ معشوقٍ ونوْم رقيب

وقد ذهب الدكتور محمد جابر عبد العال إلى أن مرد هذه الآراء الإباحية عند الشعراء المجان فى البصرة والكوفة وبغداد، راجع إلى تأثرهم بالآراء الإباحية التى بشر بها غلاة الشيعة الإباحيون والتى تدعو فى مجملها إلى الحض على اللذات والتحلل من قيود الأخلاق والدين ، فوجدوا فيها ضالتهم[٤]. وذهب إلى مثل هذا الدكتور شوقى ضيف عندما عزا هذه الظاهرة إلى ظهور مذاهب شاكة على رأسها مذاهب الزنادقة والدهريين بالإضافة إلى انتشار بيوت القيان التى كانت تعرضهن للبيع وتتخذهن أدوات لتسلية الرواد[٥] .

بيوت القيان وأثرها فى الغزل :

ليس المجتمع العربى حديث عهد بالقيان ؛ فتاريخهن يمتد إلى العصر الجاهلى، ولم يكن عملهن آنذاك يقتصر على الخدمة وتولى الأعمال ، وإنما تعداه إلى بيع

---

(١) طبقات ابن المعتز ٢٥ والبيتان فى ديوانه ٢ / ٩٧ .
(٢) الفكاهة والاقتناص ١٠٩ — ١١٠ .
(٣) أشعار الخليع ٢٩ .
(٤) يراجع : حركات الشيعة المتطرفين ٩٣ — ٩٧ ثم انظر أيضاً : ٢٤٣ — ٢٤٩ و ٢٥٩ و ٢٩٨ .
(٥) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ١٠١ .

الخمور والبغاء . ولم تكن القيان وقفاً على القصور وبيوتات السادة والأشراف ، بل كن منتشرات فى مواطن وأماكن متعددة [١] أما بيوت القيان فى القرن الثانى فكانت منتشرة فى أكثر أمصار الدولة ، يقوم عليها جماعة من المقينين أعدوها للمجون والترفيه عن الرواد بضروب اللهو المختلفة من غناء وعزف وشراب وفجور، وكانت تشبه إلى حد كبير « الملاهى » وما يدور فى جنباتها من تهتك وخلاعة فى أيامنا هذه . كان يتردد على تلك البيوت جماعة منهم الشعراء وغير الشعراء ، وللشعراء منهم خاصة مساجلات وأشعار وأخبار مع قيانها وأربابها . كانت أكثر المدن احتواء لتلك البيوت الكوفة وبغداد . فى الكوفة وجد بيت أبى الأصبغ الذى كان يألفه يحيى بن زياد ومطيع بن إياس وحماد عجرد وغيرهم [٢] وبيت محمد ابن سيار الذى كان يخرج قيانه إلى ندمائه ، وكان أبو نواس من أكثر المترددين عليه ، وله فيهن وفى ابن محمد أبيات من الشعر [٣] ، ثم بيت الشاعر إسماعيل القراطيسى الذى كان يجمع فيه الغلمان والقيان كما أخبر هو نفسه فى أبيات له [٤] ، حتى عدّه أبو العتاهية رأساً فى الكشاخين [٥] . ومنها بيت أم أبى نواس التى كانت تُناده (تجمع) فيه الغوانى على حد قول ابن منظور [٦] . وأكثر بيوت القيان فى الكوفة شهرة كان بيت ابن رامين واسمه عبد الملك بن رامين مولى عبد الملك ابن بشر بن مروان [٧] . وفى الأغانى « كان فى الكوفة صاحب قيان يقال له ابن رامين قدمها من الحجاز ، فكان مَنْ يسمع الغناء ويشرب النبيذ يأتونه ويقيمون عنده مثل : يحيى بن زياد ، وشُراعة بن الزّندبوذ ، ومطيع بن إياس ، وعبد الله ابن العباس المفتون ، وعون العبادى الحيرى ، ومحمد بن الأشعث الزُّهْرى المغنى . وكان — أى ابن رامين — نازلا فى بنى أسد فى جيران إسماعيل ابن عمار ، فكان

---

(١) يراجع تفصيلا هذا فى : القيان والغناء فى العصر الجاهلى . لناصر الدين الأسد / ٤٠ — ٦٥ .
(٢) الأغانى ١٢ / ١٠٥ والديارات / ٢٥٤ .
(٣) ابن منظور ١ / ٧ .
(٤) الورقة ١٠٧ — ١٠٨ .
(٥) المصدر السابق ١٠٨ .
(٦) ابن منظور ١ / ٣٣ .
(٧) الأغانى ١٥ / ٦٠ .

إسماعيل يغشاه ويشرب عنده »[١]. وكان يغشى بيت ابن رامين بالإضافة إلى من تقدم أناس معروفون من مثل : روح بن حاتم ، وعبد الرحمن بن مقرن ، ومعن ابن زائدة وعبد الله بن المقفع ، وكانوا يتبارون فى إرضاء جواريه وإغداق الأموال والخلع والهدايا عليهن[٢] . كانت لابن رامين ثلاث جوار هُنّ : سلامة الزرقاء وسعدة ، وربيحة ، وكن من أحسن النساء غناء ، ولما بيعت سلامة قال فيها محمد بن الأشعث[٣] :

أمسى لسلامة الزرقاء فى كبدى ... صَدْع مقيم طَوالَ الدهر والأبد
لا يستطيع صَنَاع القوم يَشْعَبُه ... وكيف يُشْعَبُ صدع الحُبِّ فى كبدِ
إلا بوصل التى من حبها انصدعت ... تلك الصدوع من الأسقام والكمد

وقال إسماعيل بن عمّار[٤] :

أية حالٍ يا ابن رامين ... حال المحبين المساكين
تركتهم موتى وما مُوِّتوا ... قد جُرِّعوا منك الأمرّين . . .
يا راعى الذود لقد رُعْتَهمُ ... ويلك من روع المحبين
فرقْت قوماً لا يُرى مِثْلُهم ... ما بين كوفان إلى الصين[٥]

ولإسماعيل هذا قصيدة طويلة فى جوارى ابن رامين يذكر فيها غرامه وعشقه لربيحة ويصف ما كان يعجبه منها ، قال :

إلى ربيحة إن الله فضّلها ... بحسنها وسَمَاعٍ ذى أفانين
وهاج قلبى منها مضحك حسن ... ولثغةٌ بَعْدُ فى (زاى) وفى (سين)
نفسى تأبى لكم إلا طواعية ... وأنت تأبين لوماً أن تطيعينى
وتلك قسمة ضيزى قد سمعتِ بها ... وأنت تتلَيْنها ما ذاك فى الدين[٦]

---

(١) الأغانى ١١ / ٣٦٤ .
(٢) الأغانى ١٥ / ٦٤ ؛ ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ .
(٣) الأغانى ١١ / ٣٦٤ و ١٥ / ٥٥ وابن الأشعث كان من فتيان أهل الكوفة وظرفائهم وأدبائهم وكان يقول الشعر ويتغنى فيه .
(٤) الأغانى ١١ / ٣٦٨ و ١٥ / ٦٨ .
(٥) الكوفان : الكوفة .
(٦) تتليها : تتبعينها وتعملين بها .

إن تسعفيني بذاك الشيء أرضَ به وإن ضننت به عني فزنيني !!
أنتِ الطبيب لداءٍ قد تلبّس بي من الجوى فانفثي في رِقّ وارقيني

ثم يتحدث في باقي القصيدة عن ذكرياته مع سعدة والزرقاء[١] . وأنه لمن عجب لهذين الشاعرين أن يقولا مثل هذا الشعر الذي ينبي عن عشق ولوعة في قيان كانت تقضي عندهن الأوطار وترتكب معهن الفاحشة ؛ بدليل أن الشاعر شراعة بن الزندبوذ اتهم بأنه عنين لا يأتي النساء فقال[٢]:

قالوا : شراعة عنّين ، فقلت لهم : الله يعلم أني غير عِنّين
فإن ظننتم بي الظن الذي زعموا فقربوني إلى بيت ابن رامين

أما بيوت القيان ببغداد والتي كان أكثرها صوب الكرخ ، فمنها بيت أبي عون نافع بن عون بن المُقعد مولى جوهر التي كان يميل إليها حماد عجرد ، وكان مولاها يقيّن عليها ويكسب من ورائها في غياب حماد حتى إذا ما حضر حماد لا يُمكّن أحداً من أصدقائها أن يخلو بها ، ولكن تصادف أن جاء مرة عند أبي عون أصدقاء لجاريته فحجبها عن حماد ، فقال حماد أبياتاً يعرض فيها بأبي عون ، وقد تخللها فحش ومجون[٣]. ولحماد أيضاً مقطوعات أخرى فاحشة في أبي عون وكلها تدور حول اتجاره بجوهر واتخاذه داره مكاناً للزنا والفجور ، ومما قاله فيه[٤].

أنت إنسان تسمى داره دار الزوانى
قد جرى ذلك بالكر خ على كل لسانِ

ولكن بالرغم من هذا الاعتراف من حماد فإننا نجد له شعراً في جوهر يدعي فيه أنه يحبها ويحب لأجلها كل من له علاقة بها ، قال[٥]:

---

(١) الأغاني ١١ / ٣٦٥ – ٣٦٧ و ١٥ / ٦١ – ٦٢ ومعجم ما استعجم ٣٦٧ .
(٢) عيون الأخبار ٤ / ١٠٠ والأغاني ١٥ / ٧١ مع بعض الاختلافات في البيت الثاني .
(٣) الأغاني ١٤ / ٣٤٢ – ٣٤٣ .
(٤) انظر هذه الأشعار في : الأغاني ١٤ / ٣٤٣ – ٣٤٤ ثم ٣٦١ .
(٥) المصدر السابق ١٤ / ٣٤١ .

إنى لأهوى جوهرًا ويحب قلبى قلبها
وأحب من حبى لها مَنْ ودَّها وأحبهـا
وأُحب جارية لها تخفى وتكتم ذنبهـا
وأحب جيراناً لها وابن الخبيثة ربها

ومن مقيّنى بغداد أيضاً الأصبغ بن سنان ، وسيرين بن طرخان النخّاس[١] ، ومنهم الجنديسابورى الذى ذكر أبو هفان خبراً له مع أبى نواس بشأن جارية من جوارى أسماء بنت المهدى راعه جمالها وبهره حسنها فقال له أبو نواس : « مثل هذا فاشتر يانخاس »[٢] ومنهم أبو الخير[٣] . فقد كانت له جارية جميلة ، قيل إنها جلست ذات مرة إلى أبى نواس تمازحه وتداعبه فى إحدى زياراته لبيت أبى الخير ومعه ذُفافة العنسى صاحب خيل هارون الرشيد ؛ ومن ثم انتقلت إلى الغناء والضرب على العود ، وهى التى قال فيها :

وذات خَدٍّ مورّد قوهيـة المتجرد

ومن بيوت بغداد ، بيت حرب بن عمرو الثقفى الذى « كانت له جارية مغنية ، وكان الشعراء والكتاب وأهل الأدب ببغداد يختلفون إليها ، يسمعونها ، وينفقون فى منزله النفقات الواسعة ويبرونه ويهدون إليه »[٤] . وفيها قال أشجع السلمى :

جارية تهتز أردافهـا مشبعة الخلخال والقُلْبِ
أشكو الذى لاقيت من حبها وبغضَ مولاها إلى الرب
من بغض مولاها ومن حبها سقمت بين البغض والحب
فاختلجا فى الصدر حتى استوى أمرهما فاقتسما قلبى

(١) الأغانى (ساسى) ٢١ / ١٤٣ .
(٢) أبو هفان ٢٨ .
(٣) المصدر السابق نفسه ٨٨ — ٨٩ .
(٤) الأغانى (ساسى) ١٧ / ٥٠ .

تعجل الله شقائى بها وعجل السقم إلى حرب

ومنها بيت أبى عمير النخاس بالكرخ ، كانت له جوار قيان لهن ظرف وأدب ، وكان الشاعر عبد الله بن محمد البواب يألف واحدة منهن اسمها (عبّادة) ويكثر غشيان منزل أبى عمير من أجلها حتى ضاق به فانقطع مدة ثم عاود زيارته فوجد عنده جماعة ممن يألفون جواريه ، فرحبوا به جميعاً وعاتبوه على تأخره ، فقال بعد أن أخذ منه النبيذ مأخذاً :

لو تشكى أبو عمير قليلا لأتيناه من طريق العياده
فقضينا من العيادة حقًّا ونظرنا فى مقلتى «عبّاده»

فقال له أبو عمير : «مالى ولك يا أخى ؟! انظر فى مقلتى عباده متى شئت غير ممنوع ، ودعنى أنا فى عافية لا تتمنّ لى المرض فتعودنى»[1]. وكان من مغنيى بغداد أيضاً رجل يقال له (حسنويه) ، وكانت (فضل) الشاعرة جارية له ، وكانت تجلس إلى الرجال ويأتيها الشعراء[2]. ومنهم (الجنيد النخاس) الذى كان يتردد عليه كثيراً الشاعر أبو دلامة لأنه كان يتعشق جاريته ، ومما قاله فيها :

إنى لأحسب أن سأمسى ميتاً أو سوف أصبح ثم لا أمسى
من حب جارية الجُنَيْد وبغضه وكلاهما قاضٍ على نفسى
فكلامُها يُشفى به سَقَمى فإذا تكلّمُ عاد لى نكْسى[3]

ومن مغنيى بغداد أيضاً أبو الخطاب النخاس (قرين) مولى العباسة بنت المهدى الذى كانت له جارية يقال لها (خُشْث) ؛ قيل إنها «كانت من أجمل النساء وأكملهن ، وكان لها خال فوق شفتها العليا ، وكانت تعرف بذات الخال» . كان يهواها إبراهيم الموصلى وكان يقول فيها الشعر ويغنى فيه فشهرها بشعره وغنائه ،

(١) الأغانى (ساسى) ٢٠ / ٤٤ .
(٢) الأغانى (ساسى) ٢١ / ١١٤ .
(٣) الأغانى ١٠ / ٢٧٠ .

ومما قاله إبراهيم[١] فيها :

ما بال شمس أبي الخطاب قد حُجبَتْ ... أظن يا صاحبي الساعة اقتربتْ
أولا ، فما بال ريح كنت آنسُها ... عادت على بِضَرٍّ بعد ما جَنَبَتْ[٢]
أشكو إليك أبا الخطاب جارية ... غريرة بفؤادى اليوم قد لعبت
وأنت قيّمها فانظر لعاشقها ... ياليت قد قَربت منى وما بَعُدَتْ

ولما بلغ الرشيد خبرها اشتراها بسبعين ألف درهم ولكنه لما سألها عما كان بينها وبين إبراهيم الموصلى فاعترفت أبغضها ووهبها إلى (حمويه) الوصيف[٣] ولإبراهيم فى ذات الحال عدد من المقطوعات الغزلية غناها هو ، وكلها تدور على ادعائه حبها وعشقها[٤] . ومنها هذه الأبيات التى تنم عن طبيعة العلاقة بينهما[٥].

لقد أخلو بذات الخا ... ل والحراس قد هجعوا
فمن يُبصرْ أبا الخطا ... ب يطلبها ويتّبع
ألا لم ترَ محزوناً ... تسنَّم صَبْرَهُ الجزع
وقارعنى ففزت بها ... وحازتها لى القُرَعُ

وهناك أخبار لبيوت أخرى ونخاسين آخرين فى بعض أرجاء الحاضرة الإسلامية آنذاك . ففى البصرة كان بيت (أبى هاشم) ، ويقال إن الشاعر محمد بن يسير البصرى[٦] كان يهوى قينة من قيانه ، ولما كتبت إليه امرأته تعاتبه ، رد عليها بقصيدة يطلب إليها ألا تجزع ولا تقاسى الهموم بعده لانصرافه إلى الجارية[٧]. وفى المدينة

---

(١) الأغانى ١٦ / ٣٤١ .
(٢) الضر : البرد . جنبت الريح : هبت جنوبا .
(٣) الأغانى ١٦ / ٣٤٢ .
(٤) انظر : الأغانى ١٦ / ٣٤٧ — ٣٥٣ .
(٥) المصدر السابق ١٦ / ٣٤٩ .
(٦) يقال إنه كان مولى لبنى رياش ، ويقال إنه منهم صليبة ، كان شاعراً ظريفاً من شعراء المحدثين ولكنه مقل . لم يفارق البصرة ، ولا وفد إلى خليفة ولا شريف منتجعا ، ولا تجاوز بلده ، وكان ماجناً هجاء خبيثاً (الأغانى ١٤ / ١٧) .
(٧) انظر : الأغانى ١٤ / ٢٦ — ٢٧ .

كان بيت حماد بن عمران الطليحى الملقب بعُطْعُط ، كانت له قيان يسمعهن الناس عنده ، وتطلب عندهن الفاحشة بدليل قول الشاعر ابن أبى الزوائد [١] فيهن [٢] :

أقول وقد صُفَّت البُظْرُ لى ... أللبظر أدخلنى عُطعُط.
فإنى امرؤٌ لا أُرْحِب الزِّنا ... ولا يستفزنى البَرْبَـط.[٣]
ولو بعضهن ابتغى صبوتى ... لخالط هامَتها المِخْبَط.[٤]

وكان فى المدينة أيضاً بيت يحيى بن نُفيس مولى (بصبص) ، كان صاحب قيان يغشاه الأشراف ويسمعون غناء جواريه ، وكانت بصبص وهى جارية مولّدة من مولدات المدينة ، حلوة الوجه ، حسنة الغناء ، قيل إن المهدى اشتراها — وهو ولى العهد — سراً بسبعة عشر ألف دينار ، فولدت منه عُلَيّة [٥] . وفى بصبص قال ابن أبى الزوائد يصف جمالها ويتحدث عن غنائها [٦] :

بصبص أنت الشمس مزدانة ... فإن تبدلتِ فأنت الهلال
سبحانك اللهم ما هكذا ... فيما مضى كان يكون الجمالْ
إذا دَعَتْ بالعود فى مشهد ... وعاونت يمنى يديها الشمال
غنّت غناء يستفز الفتى ... حِذقاً وزان الحذْق منها الدلال

أما فى الرّقة فنجد فى الأغانى خبراً عن منزل نخاس لم يذكر اسمه ، روى عن الحسين بن الضحاك أنه قال : « دخلت أنا ومحمد بن أمية منزل نخاس بالرقة أيام الرشيد وعنده جارية تغنى فوقعت عينها على محمد ، ووقعت عينه عليها »[٧] . وفيها

---

(١) هو سليمان بن يحيى بن زيد بن معبد ، شاعر مقل من مخضرمى الدولتين ، كان يؤم الناس فى مسجد رسول الله ، ويقال إنه قدم بغداد أيام المهدى (الأغانى ١٤ / ١٢١ و ١٢٦) .
(٢) الأغانى ١٤ / ١٢٣ .
(٣) البربط : العود (معرب) .
(٤) المخبط : العصا . يخبط بها الورق .
(٥) الأغانى ١٥ / ٢٧ .
(٦) المصدر السابق ١٥ / ٣٤ .
(٧) الأغانى ١٢ / ١٤٩ .

قال محمد [١]:

خبّرينى منِ الرسول إليك واجعليـــه من لا ينمّ عليكِ
وأشيرى إلىّ من هو باللحـ ـظ ليخفى على الذين لديك
وأقلّى المُزاح فى المجلس اليو م فإن المزاح بين يديك

وكان فى القيان شاعرات يجالسن الشعراء المجان ويبادلنهم الأشعار الفاضحة التى يندى لها الجبين إذا ما سمعت من رجل ، فكيف إذا سمعت من امرأة !! وأحسن دليل على هذا نقائض أبى نواس مع عنان التى لا يستحسن ذكرها هنا [٢] . ومثلها ما جرى بين أبى نواس نفسه وأربع نسوة ما جنات بظاهر البصرة فى متنزه عندما أخذوا يتناشدون الأشعار [٣] وتلك كانت سجية القيان وأخلاقهن وليس أدل على هذا من شعر أجابت به إحدى القيان أبا نواس عندما كتب إليها ثلاثة أبيات من الشعر يقص عليها رؤيا خطرت له فى منامه من أنه بات معها فى فراش واحد ملتحمين متعانقين ، فقالت [٤]:

خيرًا رأيت ، وكل ما عانيته ستناله منى برغم الحاسدِ
صلْ من هويت ودع مقالة حاسد ليس الحسود على الهوى بمساعد
يا مَنْ يلوم على الهوى أهل الهوى هل يستطيع صلاح قلب فاسد
لم يخلق الرحمن أحسن منظرًا من عاشقين على فراش واحد
متعانقين عليهما حُلَلُ الهوى متوسّدين بمعصم وبساعد
إنى لأرجو أن تصير مضاجعى وتبيت منى فوق ثدى ناهد
وتكون بين خلاخلٍ ودمالج فى ثَنْى أرياط وبين مجاسد
فنبيت أسعد عاشقين تعاطيا حُلو الحديث بلا محافة راصد

(١) المصدر السابق ١٢ / ١٥٠ .
(٢) انظر : ديوان أبى نواس (فاجنر) ١ / ٨٠ — ٨٥ .
(٣) المصدر السابق ١ / ٨٦ — ٨٧ .
(٤) ديوان أبى نواس (فاجنر) ١ / ٩١ .

ولقد فطن القدامى من كتاب وشعراء إلى أخلاق القيان السيئة فأفاضوا فى وصفها وتحدثوا عن ألاعيبهن وتصنعهن العشق والحب ومخادعتهن الشعراء والرواد ، فالجاحظ يقول : « . . إن القينة لا تكاد تخالص فى عشقها ، ولا تناصح فى ودها ، لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين ليقعوا فى أنشوطتهما. فإذا شاهدها المشاهد رمته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى أشعار الغناء ....، وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لغرامه . . وربما شاركت صاحبها فى البلوى حتى تأتى إلى بيته فتمكنه من القبلة فما فوقها وتفرشه نفسها إن استحل ذلك منها . . ، وأكثر أمرها قلة المناصحة ، واستعمال العذر والحيلة . . وربما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنهم يتحامون الاجتماع ويتغايرون عند الالتقاء ، فتبكى لواحد بعين وتضحك للآخر بأخرى ، وتغمز هذا بذاك . . . » (١) .

أما الوشاء فيقول إن : « حبهن حب كذوب ، وعشقهن عشق مشوب ، وهواهن منسوب إلى الملل ، ليس بثابت ولا متصل ، وإنما هو لطمع وعرض ، وهن سريعات الغرض ، يستدل على ذلك بأفعالهن الردية ، وأخلاقهن السيئة ، وإنهن لن يقصدن إلا أهل النشب (٢) ويصدفن (٣) عن ذوى الحسب ، وإن محبتهن تظهر ما ظهرت علامات اليسار والمال ، وتنتقل عند الإفلاس والإقلال ... » (٤) ثم يقول : « على أنهن يحتملن القبح والشيب مع اليسار ، ويكرهنهما مع الفقر والإقتار ، فإذا اجتمع القبح والشيب مع الإفلاس فى أى إنسان كان من الناس ، فليس عندهن مطلب ولا لديهن سبب ... » (٥) . وكمثال على هذا ما يروى من أن روح بن حاتم كان كثير الغشيان لمنزل ابن رامين وكان يختلف إلى الزرقاء جاريته ، وكان يهواها محمد بن جميل ويهواه فشعر بثقل ابن حاتم وشكا ذلك إليها فقالت : « فما أصنع ،

---

(١) ثلاث رسائل للجاحظ — رسالة القيان ٦٩ — ٧١ .
(٢) النشب : العقار .
(٣) يصدفن : ينصرفن .
(٤) الموشى ١١٦ .
(٥) المصدر السابق ١٢٨ .

قد غمر مولاى ببره » ولكنها استطاعت أن تتخلص منه ليخلو لها الجو مع ابن جميل بحيلة خبيثة ، انقطع عنها بعد ذلك[١] . ومثل هذا ما ذكر عن صديق الشاعر البصرى محمد بن يسير من أنه كان : « من أسمج الناس وجهاً ، وأقلهم أدباً ، إلا أنه كان وافر المتاع ، فكان القيان يواصلنه ويكثرن عنده ، ويهدين إليه الفواكه والنبيذ والطيب »[٢]. وليس بغريب على القيان أن تفعل مثل هذا ما دام أربابهن والقيمون على أمورهن كذلك ، فقد قيل إن محمد بن رزين المعروف بأبى الشيص الخزاعى ، كان يتعشق قينة لرجل من أهل بغداد ، فكان يختلف إليها وينفق عليها فى منزل الرجل حتى أتلف مالا كثيراً . فلما كُفّ بصره وأخفق جعل إذا جاء إلى مولى الجارية حجبه ومنعه من الدخول[٣]. وقد علل الجاحظ انحطاط أخلاق القيان وسوء أفعالهن فقال : « وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ؟! وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يَصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخانيث وبين الخلعاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة . . . . »[٤].

وبسبب كل ما تقدم كانت بيوت القيان مسارح لرواد اللهو والمتعة من المجان وطلاب اللذة من الشعراء وغير الشعراء . وهم وإن تغزل أكثرهم فى القيان — كما تقدم — إلا أنه مما لا شك فيه أنهم كانوا مدركين لحقيقة القيان وإن أشعارهم تلك لم تكن إلا بضاعة زائفة مزجاة ، ووسيلة لمبادلتهن سلعة بسلعة وهذا يشبه ما نسميه فى عصرنا الذى نعيش فيه (الإسطوانات الفارغة أو الكلام الفارغ) التى يرددها بعض شباب اليوم ويتبادلونها مع (بنات الهوى) ونساء (الملاهى) وبيوت (الدعارة) ، وهى كلمات آنية تذهب بذهاب مناسبتها ، وكذلك كان شعراء هذا اللون فى القرن الثانى . ولم يغب عن بال بعض الشعراء وحتى من المجان أنفسهم فى ذلك

---

(١) الأغانى ١٥ / ٦٠ .
(٢) الأغانى ١٤ / ٢٨ .
(٣) الأغانى ١٦ / ٤٠٥ .
(٤) ثلاث رسائل للجاحظ ٧٢ — رسالة القيان — .

الوقت ألاعيب القيان ومكرهن وخداعهن وكذبهن ، فذكروا ذلك فى شعرهم . وكان فى طليعتهم أبو نواس خدين القيان وطفلهن المدلل . قال فى عنان[١] :

إنى لأهواك وإنى جبان أفرق من علمى بغدر القيان
يصلن من واصلنه خدعة بكسرة الطرف ومزح اللسان

وقال فى قينة أخرى[٢] :

ومظهرةٍ لخلق الله نسكاً وتلقانى بدل وابتسام
أتيت فؤادها أشكو إليه فلم أخلص إليه من الزحام
فيا من ليس يكفيها خليل ولا ألفا خليل كل عام
أظنكِ من بقية قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

وأشار بعض المحدثين إلى إقبالهن على ذوى المال واليسار فقال[٣] :

إذا رأين القيان أحمق ذا مال يقلبن نحوه الحَدَقا
وبالتغنى وبالتدلل يَسْـ لُبْنَ فؤادًا بحبه عَلِقا
حتى إذا ما سلخن جِلْدته سَلْخاً رفيقاً ، وبدّد الورقا
قلن ادخلوا ، ذا الطُّوير ، قد م طرح الريش ،وشُدّوا من دونه الغَلَقا[٤]
فبتن يَرْعين فى دراهمه وبات يرعى الهموم والأَرقا

وذكر المرزبانى أن للشاعر عطاء بن أحمد المدينى ، وكان من ظرفاء المدينة المعدودين ، قصيدة يذم فيها القيان أولها[٥] :

لا تعتبنّ على القيان ولاتُردْ وُدّ القيان فإنهن تجارُ

---

(١) ديوان أبى نواس (آصاف) ١٨٣ .
(٢) ديوان أبى نواس (آصاف) ١٨٣ .
(٣) عيون الأخبار (ط دار الكتب ١٩٣٠) ٤ / ٩٠ .
(٤) الغلق : ما يغلق به الباب .
(٥) معجم الشعراء ١٦٠ .

وهناك أمثلة كثيرة فى هذا الصدد ذكرها صاحب الموشى فى كلامه على القيان[١] ولكنه من الأهمية أن نشير إلى اعترافات القيان أنفسهن بما كن عليه وفيه ، قالت فضل الشاعرة[٢] :

يا ويلك إن القيان كالشَّرَك ال ... منصوب بين الغرور والعطب
لا يتصدين للفقير ولا ... يَرْمُقن إلاَّ معادن الذهب
يلحظن هذا وذا وذاك وذا ... لحْظَ محبٍّ بِطَرْفِ مكتسب

وتعترف إحدى القيان اللائى كان يتعشقهن بشار بأبرز صفة من صفاتهن وهى أن زيادة المودة عندهن تتناسب تناسباً مطرداً مع الدراهم ، قيل إنه لما كتب إليها :

هل تعلمين وراءَ الحب منزلة ... تُدْنى إليك ، فإنَّ الحب أقصانى

كتبت إليه :

نعم أقول : وراءَ الحب منزلة ... حُبُّ الدراهم يُدْنى كُل إنسان
من زاد فى النقد زدنا فى مودته ... لا نبتغى الدهر إلا كُلَّ رُجحان[٣]

فهل يتصور بعد كل هذا أن يكون هؤلاء الشعراء صادقين فى حبهم وأشعارهم مع هذه الطبقة الدنيئة من النساء ؟! أحسب أن لا ! وقديماً قال الوشاء : « واعلم أن العشق لا يكون مع الفسق ، ومتى مازج العشق الفسق ضعفت قواه ، وانفصمت عراه ، وهم لا يريدون غير الرفث ، ويسمونه مسامير الحب ، وزعموا أن أسباب الحب لا تتصل إلا به ، ولا يزال منْحلاً حتى يشدها ذلك »[٤] . وهكذا كان غزل شعراء بيوت القيان من (الرفث) أو (مسامير الحب) — على حد قول الوشاء — أو من (الأسطوانات الفارغة) — على حد تعبيرنا الحديث — ، هذا الغزل الذى

---

(١) راجعها فى الموشى ١٢٢ — ١٢٦ و ١٥٣ أيضاً .
(٢) الموشى ١٢٢ وطبقات ابن المعتز ٤٢٦ مع بعض الاختلافات .
(٣) المختار من شعر بشار ، للخالديين ٥٠ ومحاضرات الأدباء ٢ / ١٤٦ .
(٤) الموشى ٨٩ .

لا يقال إلا فى حينه لأن الرفث ومساميره لا تتصل إلا به فى أكثر الأحايين . ومن الأمثلة على هذا ما يروى عن محمد بن الأشعث الذى تقدم بعض شعره فى سلامة الزرقاء إحدى قيان ابن رامين والذى بدا فيه وكأنه المحب العاشق ، هذا المحب الذى انصرف عنها لمجرد أنه رأى بضاعة جديدة ممثلة فى وصيفة جديدة ؛ تقول الرواية : « ودخل ابن الأشعث يوماً على ابن رامين فخرجت إليه الزرقاء ؛ فبينما هو يُلقى عليها إذ بصر بوصيفة من وصائفهم فأعجبته ، فقال شعراً فى وقته وتغنى فيه ؛ فأخذته منه الزرقاء ، وهو قوله :

قل لأختى التى أحب رضاها ... أنتِ لى فاعلميه ركنٌ شديدُ

إن لى حاجة إليك فقولى : ... بين أذنى وعاتقى ما تريد[1]

ففطنت الزرقاء للذى أراد ، فوهبت له الوصيفة فخرج بها[2] . ثم إن ابن الأشعث نفسه تحول عن بيت ابن رامين ذاك ومال إلى (سحيقة) جارية زريق ابن منيح مولى عيسى بن موسى فأصبح من ملازمى بيت زريق الذى كان يذهب إليه أشراف الكوفة من كل حى ، وله فى زريق وجاريته أبيات أشاد بها فيهما وعرّض بابن رامين[3] . ومما قاله فى سحيقة[4] :

سحيقة أنت واحدة القيان ... فمالك مُشْبَهٌ فيهن ثان

فَضَلْتِ على القيان بفضل حِذْق ... فَحُزت على المدى قَصبَ الرِّهَان

سجدن لك القيان مُكفِّرَاتٍ ... كما سجد المجوس لمرزبان[5]

ولا سِيَمَا إذا غَنَّيت صوتاً ... وحركت المثالث والمثانى[6]

---

(١) أى ما تريد فى عنقى حتى أفعله .

(٢) الأغانى ١٥ / ٥٧ .

(٣) انظر : الأغانى ١٥ / ٥٨ — ٥٩ .

(٤) الأغانى ١٥ / ٥٩ .

(٥) التكفير : إيماء الذى والمجوسى برأسه ، أو أن يتطامن ويضع يده على صدره ، أو أن يسجد لمن يعظمه أو أن ينحنى ويطأطئ رأسه قريباً من الركوع ، وكل أولئك طريقة للتعظيم .

(٦) المثالث والمثانى : من أوتار العود .

الغزل فى الجوارى الغلاميات :

بينا فى الحديث عن الغزل فى المذكر وأسبابه كثرة الغلمان فى هذه الفترة وكيف أن الأمين كان يغالى فى طلبهم والاهتمام بهم وإيثارهم على الجوارى ، وفسرنا على ضوئه لحاجة أبى نواس والحسين الخليع فى هذا الغزل[١] . أما الآن فنعرض لنوع جديد من الغزل فى هذا القرن استجد بسبب الجوارى الغلاميات اللائى وجدن فى هذه الفترة ، وكان السبب المباشر فى وجودهن كما يذكر المؤرخون الخليفة الأمين نفسه بحيث لا نكاد نقع على أخبار وروايات تتعلق بالغلاميات قبل خلافة الأمين ، ويقال إن أمه زبيدة لما رأت ولعه الشديد بالغلمان من خدمه ورفْعه لمنازلهم وإيثارهم ، اتخذت له جوارى أعدتهن إعداداً يشبه الغلمان إلى حد كبير من حيث الشكل والخلقة : « فاتخذت منهن المقدودات الحسان الوجوه ، وعممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية ، وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق ، فبانت قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إليه فاختلفن فى يديه ، فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة ، واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجوارى المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن الغلاميات »[٢] . ومن ثم أخذ هذا الزى فى الشيوع فيما بعد[٣] . وإذا ما فتشنا شعر الغزل فى هذا القرن فلا نقع على نماذج فى الغلاميات إلا عند خديتى الأمين : النواسى والخليع ، وفى هذا دليل قاطع على شيوع هذا الصنف منذ عهد الأمين ثم غدا يستخدم بعد ذلك فى قصور الأمراء والسادات[٤] ، وفى أماكن اللهو والحانات بدليل ما نجده لأبى نواس من غزل فى الغلاميات الساقيات . . ومن أحسن الصور التى رسمها الشعراء للغلامية أبيات لأبى نواس يتحدث فيها عن شكل الغلامية ولباسها ويصفها وصفاً دقيقاً مماثلاً لما نقلته كتب التاريخ عما فعلته أم الأمين بهذا الصنف من الجوارى إشباعاً لرغبة ابنها . قال أبو نواس فى جارية غلامية من جوارى القصر[٥] :

---

(١) انظر : الفصل الرابع من هذا الكتاب ص ٢١٠ – ٢١١ .
(٢) مروج الذهب ٤ / ٢٤٤ – ٢٤٥ .
(٣) المصدر السابق ٤ / ٢٤٥ .
(٤) الأغانى ١٥ / ٣٣٠ .
(٥) أبو هفان ٢٩ .

لقد صُبِّحَتْ بالخير عين تصبّحت ... بوجهك يا مكنون فى كل شارق

مقرطقة ، ما شأنها سحب ذيلها ... ولا نازعتها الريح فضل البنائق[١]

تشارك فى الصنع النساء وسلّمت ... لهن صنوف الحلى غير المناطق

ومطمومة لم تتصل بذؤابة ... ولم تعتقد بالتاج فوق المفارق[٢]

كأن مخطَّ الصدغ فى صحن خدها ... بقية أنقاسٍ بأصبع لائق[٣]

غذته بماء المسك حتى جرى لها ... إلى مستقرٍّ بين أذنٍ وعاتق[٤]

غلام وإلا فالغلام شبيهها ... وريحان دنيا لذة للمعانق

خلابة زنديق ولحظة قينةٍ ... بكل الذى تهوى ومنية عاشق

فالذى يلاحظ على هذه الغلامية القصرية — كما يبدو من الأبيات — أنها جميلة، قصيرة الثياب مقرطقة، تشارك النساء فى الانتماء إلى جنسهن ولكنها تركت لهن أصناف الحلى ماعدا ما تنتطق به لتكشف عن دقة خصرها للدلالة على رشاقتها ، أما شَعْرها فقصير ، وأما وجهها فلا تزينه تزييناً كاملا بأنواع الأصباغ كغيرها من النساء ؛ كل هذه الأشياء أهملتها لتشبه الغلام . بل ليشبهها الغلام ؛ وهى مع ذلك كله تمتاز بالخلابة والسحر وكل ما يميل إليها النفوس ويجذبها ؛ وهكذا فقد سبق القرن الثانى القرن العشرين فى هذا الصنف من النساء الذى نجد له نماذج كثيرة فى أيامنا هذه ، ومن يدرى فلعل التاريخ يعيد نفسه كما يقولون ! ! ولعل خير ما حبب الغلاميات إلى نفوس الشعراء أن الواحدة منهن كانت تصلح للأمرين معاً

---

(١) المقرطقة : لابسة القرطق وهو القباء . وفى فقه اللغة للثعالبى : نوع من اللبس يتدثر به من ثياب النوم . البنائق : مفردها بنقة وبنيقة رقعة تكون فى الثوب ، أو طوق الثوب الذى يضم النحر، أو لبنة القميص أو جربانه .

(٢) طم الشعر : جزّه وقصّه . التاج : الإكليل .

(٣) أنقاس : جمع نقس وهو المداد الذى يكتب به . اللائق : الذى يدهن النقس .

(٤) العاتق : أعلى الكتف .

أى لما تصلح له النساء والغلمان فى آن واحد ، دليل هذا ما رواه أبو هفان عن أبى نواس مع الغلامية السابقة التى ظل يراوغها بأشعاره مدة حتى استجابت له ومكنته من نفسها فاتخذها للأمرين معاً . ولأبى نواس قصيدة فى هذه الحادثة تحدث فيها بالتفصيل عن قصته مع الغلامية السابقة[١]. كما ردد هذه النغمة فى شعره غير مرة ، قال فى إحدى خمرياته[٢]:

أفديك خذها من يدى وهاتِ عذبنى حب غلاميات
وذوات أصداغ معقربات مقومات القد مهضومات
يمشين فى قُمُص مزررات يصلحن للاّطة والزناة

وللحسين بن الضحاك أبيات فى غلامية من غلاميات قصر (الخُلد) ، وصفها فيها بأوصاف مشابهة لأوصاف أبى نواس مما يدل على زى الغلامية الموحد آنذاك ، ثم تحدث عن كذبها ومراوغتها أيضاً ، قال[٣]:

رمَتْك غداة السبت شَمْسٌ من الخلد بسهم الهوى عَمْداً ومَوْتك فى العمد
موزَّرة السربال ، مهضومة الحشى غلامية التقطيع ، شاطرة القد[٤]
مُحنّأة الأطراف ، رُؤْد شبابها معقربة الصدغين ، كاذبة الوعد[٥]
أقول ونفسى بين شوق وزفرة وقد شخصت عينى ، ودمعى على الخد
أجيزى على من قد تركت فؤاده بلحظته بين التأسّف والجهْد
فقالت : عذاب بالهوى مع قربكم وموتٌ إذا أقرحت قلبك بالبُعد

ومن ثَمّ أخذت أسراب الغلاميات تتسلل إلى الخمارات والحانات منذ ذاك التاريخ ليعملن ساقيات هناك ويشعن ألوان الفجور والفحش تلبية لحاجات الرواد

---

(١) انظر : أبوهفان ٣٠ — ٣١ .
(٢) ديوان أبى نواس (آصاف) ٢٥٤ .
(٣) أشعار الخليع ٤٤ .
(٤) الشاطر : الذى أعيى أهله ومؤدبه خبثاً ، وكان هذا الاسم يطلق على أهل البطالة والفساد وربما كانوا يمتازون بدقة الخصور .
(٥) الرؤد : الشابة الحسنة .

سوية كانت أم شاذة . كما تغزل الشعراء بالسقاة من الغلمان تغزلوا بالغلاميات الساقيات واصفين ومخبرين عن مجونهن وعبثهن . إن أبا نواس هو الشاعر الوحيد الذى انفرد بالغزل فى الغلاميات الساقيات ، وأكثر منه وخاصة فى « خمرياته » يقول فى إحداهن[١] :

وخذ من كف جاريةٍ وصيف ... رخيم الدل ، ملثوغ الكلام
لها شكل الإناث ، وبين بين ... ترى فيها تكاريه الغلام
فأحياناً تقطّب حاجبيها ... وأحياناً تثنّى كالحسام

ويقول فى أخرى متحدثاً عن زيها وشكلها وحركاتها مشيراً إلى وظيفة الغلامية الساقية وما كانت تُعد له[٢] :

من كفّ جاريةٍ مقرطقـــة ... ناهيك من حسن ومن ظرف
نظرت بعينى جؤذر خرقٍ ... وتلفتت بسوالف الخَشْف[٣]
فشربت من يدها ومن فهمها ... ورشفت غير ملعن الرشف
قالت وقد جعلت تمايل لى ... كتمايل الماشى على الدف :
وجهى إذا أقبلت يشفع لى ... وعذاب قلبك حسن ما خلفى

كما تحدث فى قصائد أخرى عن مجون الساقيات وبين ما سبق أن حكاه من أنهن كن يصلحن للآطة والزناة[٤] كما كن يحملن الرواد على الإكثار من الشرب وعدم حبس الأقداح[٥] . وفى شعره ما يدل على أنه كانت له مع الساقيات صولات وجولات ، إذ قص فى بعض قصائده نماذج من تهتكه بهن . ففى إحداها تحدث عن تجربة له مع غلامية ساقية استهلها بوصف جمالها ومفاتنها التى طالما تحدث

---

(١) ديوان أبى نواس (آصاف) ٣٢٧ ثم انظر ٢٤٣ أيضاً .
(٢) ديوان أبى نواس (آصاف) ٣٠٣ .
(٣) الخشف : ولد الظبى أول ما يولد ، أو أول مشيه أو التى نفرت من أولادها وتشردت .
(٤) ديوان أبى نواس (آصاف) ٢٣٤ .
(٥) المصدر نفسه ٢٥٩ .

عنها فى غلامياته حتى وصل إلى عقدة القصيدة وبيت قصيدها وذلك بعد أن أخذ السكر مأخذه فى الغلامية ، وهكذا كان شأنه وشأن أضرابه مع السقاة من الغلمان بعد أن كان يتعتعهم السكر كما سنرى فى الغزل الغلمانى . قال أبو نواس[1] :

حتى إذا السكر كف نخوتها ... ولان من بعدها حواشيها
وأمكنتنى منها مخاتلة ... مددت رفقاً كفى إلى فيها
وأعرضت عند ذاك وارتعدت ... ثم تناولتها لأرضيها
قالت: لذا زرتنا ؟ ،فقلت لها : ... يا أحسن الناس كلهم تيها
لولا بلائى لما تجاسرتُ أهْ ... والاّ يُرى الموت فى أدانيها
ولا تعرضت للحتوف بنفـ ... ـس كان بعض الغرام يسليها
أهلا وسهلا بمن تتبعه ... نفسى ومن كان من أمانيها
فبت فى ليلة نعمت بها ... ألثمها تارة وأسقيها
وأجتنى الطيب من أطايبها ... وأُمْكِن النفس من أمانيها
سقياً لذا الوصف حيث كان ولا ... سقياً لدار أقوت مغانيها

وهكذا ساهمت الغلاميات قصريات وساقيات مثل ما ساهمت جوارى بيوت القيان وغيرها فى رواج سوق الغزل الحسى الفاحش الرخيص فى مجتمع القرن الثانى ممهدة السبيل لما تلته من عصور . وما دمنا فى صدد الحديث عن هذا اللون من الغزل فمن الأفضل أن نتبعه مباشرة بالكلام على الضرب الفاحش من ضربى الغزل الحسى فى غير نساء بيوت القيان والغلاميات ثم نخلص بعد ذلك إلى الضرب الآخر غير الفاحش .

الغزل الحسى الفاحش :

تجمعت لدينا عن هذا الضرب مادة ليست بقليلة لعدد من الشعراء تقدم ذكر بعضهم حين عرضت نماذج من هذا الغزل لشعراء بيوت القيان والغلاميات . أما

(١) المصدر السابق نفسه ٣٥٠ ثم انظر : ٣٣٢ أيضاً .

الكلام هنا فسيدور على الغزل فى جوارٍ لسن من الطبقتين السالفتين ، جوار من نوع آخر ، من الأغلبية الساحقة التى كانت تسود المجتمع فكنّ بذلك مادة خصبة وأرضاً معطاء لهذا الغزل حتى اقترنت أسماء أكثر الشعراء إن لم يكونوا كلهم بجوار معيّنات ، وربما كثرت فى سجل بعضهم الأسماء كما كان الأمر مع بشار وأبى نواس وربيعة الرقى . لقد تفنن الشعراء فى هذا الضرب تفننهم فى ضربه الآخر ، فى وصف المرأة حتى لا يكاد يفلت عضو من أعضائها دون أن يأخذ نصيبه من الوصف والذكر أو التشبيه مدفوعين إلى هذا بدوافع حسية شهوانية ماجنة تعشق جسد المرأة لا روحها وتقصد إلى التمتع بها لا إلى الإبقاء عليها ، تتسلى ولا تحب . وكان جل الشعراء من المجان والمتهتكين الذين عرفهم المجتمع وارتفعت الصيحات عالية ضد بعضهم . إلا أنه ليس ينكر أن البيئة هى التى ساعدت على خلق هذا الغزل بما كان يسودها من تهتك الجوارى وخلاعتهن ، فإذا ما وجد الشاعر الماجن جوّاً مهيئاً انطلق من عقاله ورتع فى المرعى الخصيب وليس ثمة ما يمنع من التعبير عن ذلك الجو ونقل بعض صوره وأشكاله . فى الأغانى أن (بربر) جارية آل سليمان كان لها جوار مغنيات من بينهن (جوهر) التى طالما ذكرها مطيع بن إياس فى غزله ، كانت توجه بهن إلى عسكر المهدى لبث الفساد بينهم حتى قال مطيع[1]:

خافى الله يا جوهر فقد أفسدت ذا العسكر
أفضت الفسق فى الناس فصار الفسق لا ينكر
ومن ذا يملك الناس إذا ما أقبلت بربر

ولقد بلغ من سوء ظن الشعراء بالمرأة فى هذه الفترة أنهم كانوا يتعرضون لأية فتاة تصادفهم ، قيل إن مطيع بن إياس الخزاج هو وحماد عجرد ويحيى بن زياد فى سفر ونزلوا ضيوفاً على أحد المنازل وأتوا بطعام وشراب ، فبينما هم كذلك طلعت عليهم بنت دهقان جميلة من سطح لها فأخذوا يقولون فيها شعراً فاحشاً[2]، بشكل يلفت الأذهان إلى ما يقال فى (معاكسات) بعض شباب العصر إذا ما تعرضوا لفتاة

---

(١) الأغانى (ساسى) ٢١ / ٨٦ ، ٨٧ وشعراء عباسيون ٥٠ .
(٢) الأغانى ١٤ / ٣٥٦ .

ما فى الشارع أو فى أى مكان آخر . وكثيراً ما كان يقع الخصام ويتولد عنه هجاء مر عنيف بين الشعراء بسبب الجوارى كالذى وقع بين مطيع وحماد عجرد بسبب الجارية (ظبية الوادى) إذ هجا مطيع عجرداً[١] .

تحدث الشعراء فى غزلهم هذا عما كانوا يريدون من النساء ، وما كانوا يفعلون معهن بكل صراحة وجرأة ووقاحة ، فهذا مطيع يطلب من جارية مغنية أن تقبله[٢] :

قبليني سعاد بالله قُبْله واسأليني لها فديتك نِحْله[٣]

فوربِّ السماء لو قلت لى صَ (م) لَّ لوجهى جعلته الدهر قِبْله

ويكون لطلب مطيع صدى فى نفس حماد فيردد النغمة نفسها مع الجارية نفسها فيقول :

أنا والله أشتهى مثلها منـ ـك بنُحْل ، والنحل فى ذاك حِلّه[٤]

فأجيبى وأنعمى وخذى البذ لَ وأطفى بقبلةٍ منك غُلّه[٥]

ويتحدث مطيع عن علاقته بجوهر التى تقدم ذكرها فيذكر أنه كان يقبلها ويخلو معها فيقول[٦] :

وكأنى ذائق من فمها كلما قبّلْتُ فاها سكّرَه

وكأنى حين أخلو معها فائز بالجنة المُخْتضِرَه

من هذا الصنف من الشعراء كان الشاعر أبو النضير واسمه عمر بن عبد الملك ، وقيل الفضل بن عبدالملك ، كان مولى لبنى جُمح فى البصرة ، يقول فيه أبو الفرج : « ليس من المعدودين المتقدمين ولا من المولدين الساقطين ، وكان يغنى بالبصرة على

---

(١) الأغانى ١٣ / ٢٨٢ .

(٢) الأغانى ١٤ / ٣٥٤ .

(٣) نحلة : عطية .

(٤) النحل : الهبة من غير عوض ولا استحقاق .

(٥) خذى البذل : أى البذل الذى بذله مطيع فى بيتيه السابقين .

(٦) شعراء عباسيون ٥٧ .

جوار له مولدات ، ويظهر الخلاعة والمجون ، والفسق ، ويعاشر جماعة ممن يعرف بذلك الشأن[١] .. » كان يهوى عنان جارية الناطفى فكتب إليها يقول[٢] :

إن لى حاجة ، فرأيك فيها ... لك نفسى الفدا من الأوصاب

وهى ليست مما يُبَلِّغه غيـ ... ـرى ، ولا أستطيعه بكتاب

غير أنى أقولها حين ألقاكِ ... رويداً أسرها من ثيابى

وقال أيضاً[٣] :

أنا والله أهـــواك ... وأهـــواك وأهـــواك

وأهوى قبلة منك ... على بَرْد ثناياك

ومما يعد لأبى نواس فى هذا المجال ما قاله لجارية من جوارى الأمين رآها فى الطريق[٤] . ونجده فى أبيات أخرى لا يفسح المجال لصاحبته فى أن تعاتبه ، بل يطلب إليها أن تؤجله إلى يوم آخر ، وتجعل يومها هذا للفراش حتى إذا ما غابا فيه نسيا العتاب ونسيا معه كل شىء ، قال[٥] :

قد مللنا العتاب وهو كثير ... فاقصدى قصد ما عليه ندور

واجعلى للعتاب يوماً سوى ذا ... وانهضى لا بوجهك التصقير

واجعلى للفراش منك نصيباً ... فهو مما به يتم السرور

فاستقلت على الفراش ، عليه ... حلل حشوهن طيب ونور

فنسينا عتابنا وتواهبـ ... ـنا إسا آتنا وصح الضمير

ما ذكرنا من الذى كان شيئاً ... بعد إذ ضمنى الغزال الغرير

---

(١) الأغانى ١١ / ٢٨٥ .

(٢) و (٣) الأغانى ١١/٢٨٦ .

(٤) ديوان أبى نواس (فاجنر) ١ / ٩٢ .

(٥) ديوان أبى نواس (آصاف) ٣٧٦ – ٣٧٧ .

وهنا تبرز ملاحظة هامة هى أن قصص فحش أبى نواس وتهتكه بالنساء من غير الغلاميات وشعره فيهن قليل ، وهذا إنما يدل على ما فطرت عليه نفسه من عدم الميل إلى النساء أولا ، وعكوفه على الغلمان ثانياً ، حتى إنه تعلق من أجلهم بالغلاميات وكل ما يمت إليهم بصلة ، وفيما جاء من أدلة عند الحديث عن غزله فى الغلمان وشغفه بهم ما يدعم هذا الزعم ويقويه[١].

أما الحسين بن الضحاك فيتحدث فى الأبيات التالية عن واقعة له مع زائرة ادعى أنها زارته على غفلة فقال[٢] :

زائرة زارت على غفلـــة ... يا حبذا الزورة والزائره

فلم أزل أخدعها ليلتى ... خديعة الساحر للساحره

حتى إذا ما أذعنت بالرضا ... وأنعمتْ دارت بها الدائره

بتُّ إلى الصبح بها ساهراً ... وباتت الجوزاء بى ساهره

نقف عند هذا البيت لا نتجاوزه إلى غيره من أبيات القصيدة الباقية لفحشها حتى إن الشاعر يعلن فى نهايتها عن تفضيله النساء على الغلمان لأسباب ذكرها بعكس تربه أبى نواس ، وهو فى بعض ما ذكر موافق لما ذكره الجاحظ على لسان أنصار الجوارى فى ردهم على أنصار الغلمان ، قال: « فإن أردت التفخيذ فأرداف وثيرة ، وأعجاز بارزة لاتجدها عند الغلام ، وإن أردت العناق فالثدى النواهد ، وذلك معدوم فى الغلام ، وإن أردت طيب المأتى فناهيك ، ولا تجد ذلك عند الغلام . . . ، وفى الجارية من نعومة البشرة ولدونة المفاصل ، ولطافة الكفين والقدمين ولين الأعطاف والتثنى وقلة الخشن[٣] وعيب العرق ما ليس للغلام ، مع خصال لا تحصى »[٤] ومن غزل الخليع الفاحش الصريح أبيات فى مغنية اسمها (فتن) خلا بها مغتنماً مرض (نُجْح) خادم مولاتها الذى كان يجىء معها ، قال[٥] :

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب ٢١٣ – ٢١٤

(٢) أشعار الخليع / ٦٧ .

(٣) الخشن : الوسخ ، واللزج من دسم البدن .

(٤) مفاخرة الجوارى والغلمان (بتحقيق عبد السلام هارون) ١٢٠ – ١٢١ .

(٥) أشعار الخليع ١٠٨ .

لست أنسى من الغريرَة إذ بُحْت بالشجـــنْ
قولها إذ سَلَبْتُها عن كثيب وعن عُكَنْ
ليس يرضيك يا فتى من هوى دون أن تَهنْ
فامتزجنا معاً مُما زجة الروح للبدن
وكُفينا من أن نُرا قِبَ «نُجْحاً» إذا فطن
وأمناه أن ينمّ وما كان مؤتمن
كل ما كان من حبيـ بك مستظرف حسن

ومن شعراء هذا الغزل أيضاً المؤمل بن أُميل المحاربى[١] كوفى من مخضرمى الدولتين ، كانت شهرته فى العباسية أكثر . انقطع إلى المهدى فى حياة أبيه وبعدها ، يقول عنه أبو الفرج : « وهو صالح المذهب فى شعره ، ليس من المبرزين الفحول ولا المرذولين ، وفى شعره لين وله طبع صالح »[٢]. قيل إنه مات فى حدود سنة تسعين ومائة[٣]. والقصة الشعرية التالية تكشف عن مذهب المؤمل وطوية نفسه ، وقد أقامها على حوار مع غادة جميلة استغل فيها بعض المعانى القرآنية التى تكشف عن حدة الصراع بينهما إذ كان يطلب إليها أشياء تأباها ، قال[٤]:

فقمت أسعى إلى محجّبةٍ تضيءُ منها البيوتُ والحُجرُ
فقلت لما بدا تخفرها : جودى ، ولا يمنعنك الخفر
قالت : توقّر ودع مقالك ذا أنت امرؤ بالقبيح مشتهر
والله لا نلت ما تحاول أو ينبتُ فى بطن راحتى شعر!!
لا أنت لى قَيم فتخبرنى ولا أميرٌ على مُؤتَمرُ

---

(١) ترجمته فى : الأغانى ١٩ / ١٤٧ ومعجم الشعراء ٢٩٨ ومعجم الأدباء ١٩ / ٢٠١ – ٢٠٤ وتاريخ بغداد ١٣ / ١٧٧ – ١٨٠ ونكت الهميان (ط ١٩١١) ٢٩٩ .
(٢) الأغانى (ساسى) ١٩ / ١٤٧ .
(٣) معجم الأدباء ١٩ / ٢٠٤ ونكت الهميان ١٩٩ .
(٤) نهاية الأرب ٢ / ٢٦٦ – ٢٦٧ .

قلت : ولكن ضيف أتاك به تحت الظلام القضاء والقدر
فاحتسبي الأجر فى إنالته أو ياسرى قد تطاول العسر
قالت : فقد جئت تبتغى عَملاً تكاد منه السماء تنفطر
فقلت لما رأيتها حرِجَتْ وغَشِيَتْها الهموم والفكر :
لا عاقب الله فى الصِّبا أبدًا أنثى ، ولكنْ يُعاقب الذكر
قالت : لقد جئتنا بمبتدَعٍ وقد أتتنا بغيره النُّذُر
قد بين الله فى الكتاب فلا وازرة غير وزرها تزر
قلت : دعى سورة لهجت بها لا تَحرمنَّا لذاتنا السور
وجهك وجه تمت محاسنه لا وأبى لا تَمَسّه سَقَرُ

فهذه الأبيات وإن ابتعدت ألفاظها عن الفحش إلا أن رائحته تفوح من خللها ، وهى تنطق بمآربه وأهدافه وربّ تلميح أبلغ من تصريح . ومن إشارات المؤمل غير المباشرة والتى تدل على فحش أيضاً ما قال فى إحدى صاحباته واسمها (بهار) — بعد أن تغشى الشيب مفرقه — من أنه ما زال قويًّا لم يذهب عزمه ، وقد قوّى المعنى لجوؤه إلى التشبيه الضمنى فى هذين البيتين فقال[1] :

إن تبصرى شيباً تَغَشَّى مفرقى فلقد أُعاطى الحيّة اللساعا
أو ما ترين السيف يغشى لونه صَدَأً ويوجد صارماً قطَّاعا

ولمسلم بن الوليد مشاركة فى هذا الضرب من الغزل ، وليس بدقيق ما ذهب إليه الدكتور شوقى ضيف من أنه فى غزله : « لا يمجن ولا يفحش ، بل يقترب اقتراباً شديداً من أصحاب الهوى العذرى الذى يصور آلام العاشق وحنينه وشوقه وحبه الذى يلذع فؤاده »[2] إن هذا القول ينطبق على قسم من غزل مسلم وليس على كل غزله ، هذا القسم الذى سيأتى الحديث عنه فى نهاية هذا الفصل . ولعل

---

(١) معجم الشعراء ٢٩٩ .
(٢) العصر العباسى الأول ٢٦٦ .

الدكتور شوقى كان أكثر دقة فى قوله الآتى مما فى قوله المتقدم، قال « وفى أخباره وأشعاره ما يدل على أنه كان يقبل على اللهو والطرب، ويفسح فى حياته للحب والغزل ، ولكن يظهر أنه لم يكن ينغمس فى ذلك انغماس أبى نواس وإخوانه ، فقد كان فيه وقار ، وإحساس غير قليل بكرامته »[١] وبالإضافة إلى هذا فإن مسلماً — كما يقول ابن المعتز — عرف بإقباله على اللهو والطرب ، إذ كان يجتمع بأبى نواس وطبقته مثل أبى الشيص[٢] ؛ وقد نقل الدكتور شوقى نفسه هذا فى كتابه « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى »[٣] . وفى شعر مسلم نفسه اعترافات بمجونه ولهوه وانغماسه فى اللذات وهو ما مهد له سبل القول فى هذا الغزل ، قال[٤] :

لم أَصْحُ من لذة ، لا ولا طرب ... وكيف يصحو قرين اللهو واللعب
نفسى تنازعنى اللذات دائبة ... وإنما اللهو واللذات من أربى
كم ليلةٍ بِتُّ مسروراً ومغتبطاً ... جذلان منغمسا فى اللهو والطرب
إذا دعيت إلى لهوٍ أجبتُ وإنْ ... لم أُدْعَ للهو واللذات لم أُجِبِ

ولكن متى كان هذا الانغماس فى اللهو والمجون ؟ إن ما وصل إلينا من أخبار مسلم لا يكاد يعطى إجابة مقنعة عن هذا السؤال ، لأن أخباره الأولى لم تتوفر المعلومات الكافية عنها مما شجع الدكتور سامى الدهان على القول بأن أذن الفتى مسلم قد انصرفت عن المجون وتعلقت بشعر الفحول ، ثم خلص من هذا ليقول : « وهكذا ترعرع الشاب فى وقار وهدوء ، فعرف بالأناة والصبر والخجل والبعد عن المجتمعات . . . حتى لقد انزوى عن الماجنين ، فلم ينقل إلينا فى كتب النوادر من القصص فى خلاعته ومجونه فى طفولته ، أو تردده على الدور المشبوهة ولم ينسب إلى جماعة أبى نواس أو بشار »[٥] وسبب هذا عنده تأثر مسلم بأخلاق البدو وعاداتهم وقرب حيه فى الكوفة من حافة البادية وإقامته على ذلك زمن طفولته

---

(١) المرجع السابق نفسه ٢٦٠ .
(٢) طبقات ابن المعتز ٧٢ و ٢٠٧ ثم انظر الأغانى (ساسى) ٢٠ / ٨٨ (ترجمة القراطيسى) .
(٣) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة السادسة) ١٨٠ .
(٤) ديوان مسلم ٢٠٩ ثم انظر ٢٥٦ أيضاً .
(٥) ديوان مسلم (مقدمة الدكتور الدهان) م ١٤ .

وبعض أيام شبابه . هذا التعليل قاصر فى رأيى ؛ إذ قد تبدى قبل مسلم بشار وأبو نواس، فلماذا لم يظهر هذا الأثر عند كل منهما ولو قليلا ؟ ! ثم إن ما أورده ابن المعتز وما اعترف به مسلم نفسه فيما أشرنا إليه يعترض رأى الدكتور الدهان أيضاً. ولم يبرئ فؤاد ترزى من المحدثين مسلماً من حمأة هذا التيار ، إذ قال فيه رأياً مشابهاً لرأى الدكتور شوقى ضيف الثانى ، قال : « ولسنا ميّالين إلى تنزيهه فى هذا الباب . . وإنه لابد أن سام سرح اللهو ونهز مع الغواة ، وإن كان ذلك فى شىء من التحرج وعدم الإسراف فى الغالب »[١]

وبالرغم مما تقدم أستطيع أن أزعم أن انصراف مسلم إلى اللهو قد بدا مبكراً ومنذ صباه بدليل قوله فى قصيدة يتحدث فيها عن لهوه ويتحسر على أيامه الأولى[٢] :

سلام على اللذات حتى يعيدَها ... خليع عذارٍ أو رقيبٌ مُغفَّلُ
أثَرْتُ مطىّ القصف فى مستقره ... فلا القصف متبوعٌ ولا هى تَرْحل
وأخليت ميدان الصبا من بناته ... وإنى بها للمُسْتهامُ المُوكَّل
ألا فى سبيل اللهو أيامُنا الأُلى ... أتذهب مَوْتاً أو تعودُ فتُقبِل

وخير ما يمثل مذهب مسلم فى هذا الغزل قصيدة له سار فيها على قرىّ شعراء هذا الاتجاه من مثل امرئ القيس والأعشى وابن أبى ربيعة ، ففى الأبيات التالية تحدث الشاعر عن لهوه وعبثه بفتاة قضى معها ليلة بطولها فقال[٣] :

ويوم من اللذات خالست عيشه ... رقيباً على اللذات غير مغفَّلِ[٤]
فكنت نديم الكأس حتى إذا انقضَتْ ... تعوّضت عنها ريق حوراء عَيْطل[٥]
نهانى عنها حُبُّها أن أسوءَها ... بلمس فلم أفتك ولم أتبتل
أخذت لطرف العين منها نصيبَه ... وأخليتُ من كفى مكان المخلخل
سقتنى بعينيها الهوى وسقيتها ... فدبّ دبيب الراح فى كل مفصل

---

(١) مسلم بن الوليد ٦٣ .
(٢) ديوان مسلم ٢٥٥ .
(٣) ديوان مسلم ١٤١ – ١٤٥ .
(٤) أى أنه خلا فى هذا اليوم بجارية كان رقيبها غير مغفل ، سارقه حتى انفرد بها .
(٥) العيطل : الخالية من الحلى .

وإن شئت أن ألتذ نازلت جيدها فعانقت دون الجيد نظم القرنفل
أنازعها سر الحديث وتارةً رُضاباً لذيذ الطعم ، عَذْب المقبّل
وما العيش إلا أن أبيت مُوَسداً ـ صريعُ مدامٍ ـ كفّ أحور أكحل
وممكورة رود الشباب كأنها قضيب على دِعْص من الرّمْل أهْيل[1]
خلوت بها والليل يقظان قائم على قدم كالراهب المتبتـــل
فلما استمرت من دجا الليل دولة وكاد عمود الصبح بالصبح ينجلي
تراءى الهوى بالشوق فاستحدث البكا وقال للذات اللقاء : ترحلي
فلم ترَ إلا عبرةً بعد زفـــرة مُودعة أو نظرةً بتـأمل

وقد سلك أحد الباحثين مسلماً في مدرسة بشار في الغزل الحسي الماجن ورأى فيه شاعراً لا يرى في المرأة غير ألعوبة للهو تثير الشهوة، لا يرى فيها غير مجموعة أعضاء تنبه الحس وتثير الغريزة الجنسية ، فإذا ما خلا بها ونهاه حبها عن الفتك بها ، كما في الأبيات السابقة ، لا يقف مكتوف اليدين ، ولا « يتبتل » ، كما قال ، بل يعمد إلى أشياء أخرى فيمسك مكان المخلخل، وينازل الجيد، ويعانق ويقبل[2] ... إلخ . أما إذا لم ينهه حبها في هذه الحال يفتك ويهتك ، مثال هذا ما ذكره في الأبيات التالية من أنه شرب مع شادن صغير فلما أسكرها قام إليها فكان ما كان[3] :

شربت ونادمني شادن صغير ، وإني أحب الصغارا ..
فما زلت أسقيه حتى إذا ثنى طَرْفه نشوة واستدارا
نهضت إليه فقبلته وعانقته وحللت الإزارا
وقد زادني طرباً نحوه مضاجعة الياسمين البهارا

بعد هذه الجولة مع شعراء هذا الغزل ينتهي بنا المطاف عند علم من أعلامه الكبار هو بشار بن برد رأس اتجاه الغزل الصريح الماجن في هذا القرن . من الحق

---

(١) رود الشباب : ناعمة الخلق ، صغيرة السن .
(٢) مسلم بن الوليد — لفؤاد ترزي ١٨٤ .
(٣) ديوان مسلم ١٩٠ .

أن يقال إن غزله ليس ماجناً كله وإنما جمع فيه بين شتى الاتجاهات ولو أن النزعات الحسية الخبيثة والشهوة الجسدية العارمة لم تكن تفارقه حتى فى غزله الذى يبدو فيه محبًّا أو كالمحبين ، ولا تكاد تخلو منها قصيدة من قصائده فى معشوقاته حتى فى عبدة التى قيل إنه كان صادقاً فى حبها وسنتحدث عن هذا فى موضعه من هذا الفصل .

هناك عوامل متضافرة لعبت دورها فى هذه السبيل ، فى مقدمتها تكوينه الجسمى ، إذ كان كما يقول أبو الفرج : « ضخماً ، عظيم الخلق والوجه ، مجدوراً ، طويلا جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر ، فكان أقبح الناس عمى ، وأفظعه منظراً . . . »[١] هذا التكوين جعله يعوض عنه بأشياء كثيرة ليحقق وجوده ويثبت جدارته ، لأن الأصل فى التعويض كما يرى علماء النفس من مثل (آدلر) هو تغطية شعور بالنقص للوصول إلى الشعور بالتفوق[٢] . فكان من تلك الأشياء إفراطه فى الغزل وتعشق النساء ، وادعاؤه فى مجالات كثيرة التهتك والإكثار من ترددهن له والتلهى بهن . ومن تلك العوامل أيضاً وضع المرأة عموماً — كما تقدم — ووضعها بالنسبة لبشار خاصة ، إذ كانت النساء تتردد عليه وتحضر مجالسه وتسمع شعره[٣] ؛ مما كان يفسح له المجال فى التحدث إليهن ومواصلتهن والتعلق بهن ، حتى قيل إنه علق عبدة عن هذه الطريق[٤] . تقدم فيما مضى رأى بشار ومذهبه بنماذج من شعره ، وهذه نماذج أخرى تدعم ما قيل وما تقدم ، قال[٥] :

لا خير فى العيش إن كنا كذا أبدًا ... لا نلتقى وسبيل الملتقى نَهَج

من راقب الناس لم يظفر بحاجته ... وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقال[٦] :

هل على عاشق خلا بحبيب ... فى التزام وقبلةٍ من جُناح ؟!

---

(١) الأغانى ٣ / ١٤١ .
(٢) انظر فى هذا : أسس الصحة النفسية ١٣٩ .
(٣) الأغانى ٣ / ٢٠٢ .
(٤) الأغانى ٦ / ٢٤٢ .
(٥) ديوان بشار ٢ / ٧٥ .
(٦) المصدر السابق ٢ / ١٣٨ .

يبدو أن بشاراً نفسه قد أدرك موقف النساء منه ونظرتهن إليه مما جعله يتمادى فى الاعتداد بشهوانيته والافتخار بمقدرته الجنسية مدعياً أن النساء إنما كن يملن إليه بسببها . قيل إن امرأة كانت تدخل مجلسه فعلقها وأرسل يسألها أن تواصله ، فقالت لرسوله : « وأى معنى فيك — والكلام موجه إلى بشار — لى أو لك فىّ ؟ ! وأنت أعمى لا ترانى فتعرف حسنى ومقداره ، وأنت قبيح الوجه فلا حظّ لى فيك ! فليت شعرى لأى شىء تطلب وصال مثلى ؟ وجعلت تهزأ به فى المخاطبة . . . »[١] ولما أدى الرسول الرسالة أعاده بشار إليها بأبيات ثلاثة فاحشة يعتد فيها بمقدرته الجنسية[٢]. إن فى شعره ما يكشف عن مذهبه هذا باعترافه هو ، فقد كان ميله إلى النساء يوافق جسده لا روحه ولذلك وجدناه مغرماً بالحديث عن مغامراته مع الصغيرات الغريرات ، قال[٣] :

ما كان إلا حديث جارية ... لم تلق روحى ووافقت جسدى

يا ويحها طفلة خلوت بها ... ليس دنوى فيها من العُددِ[٤]

لذلك انطلق بشار أيما انطلاق فى هذا الميدان يتحدث عن علاقاته ومغامراته مع النساء بكل وقاحة ودونما خجل أو استحياء مما كان له أثره السيئ وعواقبه الوخيمة عليه كما سيأتى . من غزله هذا قوله[٥] :

يا حسنها إذ تقول مازحة ... ونحن فوق السرير نعتفج

لقد حَرِجْنا وهى معانقتى ... تلثمنى والصباحُ مبتلجُ

فقلت : يا منيتى وياسكنى ... ما فى عناق وقبلة حرج

وقوله[٦] :

ومرتجة الارداف مهضومة الحشا ... تمورُ بسحْرٍ عينُها وتدور

---

(١) الأغانى ٣ / ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٢) المصدر السابق ٣ / ٢٠٢ .

(٣) ديوان بشار ٣ / ٧ .

(٤) العدد : جمع عدة وهو ما يعده الإنسان للمهم ، والمعنى ليست خلوتى بها مما يهتم به .

(٥) ديوان بشار ٢ / ٧١ .

(٦) المصدر السابق ٤ / ٧٨ .

إذا نظرتْ صَبتْ عليك صبابة وكادت قلوب العالمين تطير
خلوتُ بها لا يخلص الماءُ بيننا إلى الصبح دونى حاجب وستور

من أفظع شعر بشار فى هذا الغزل قصيدتان مشهورتان وردتا على شكل قصة، لا نشك فى أنه قد بالغ فيهما وكذب وتزيد ونسج من خياله الشيء الكثير إشباعاً لرغبته ونهمه وتمشياً مع مذهبه وانتقاماً لنفسه ، الأولى رائيته المشهورة التى مطلعها[1].

قد لامنى فى خليلتى عمر واللوم فى غير كنهه قدرُ

قص فى هذه القصيدة كيف أنه غرر بفتاة صغيرة وتحدث عن جو اللقاء بينهما وما تيسر له فيه من لمس وتقبيل وغيره . وقد أجرى قسماً من القصيدة على لسانها فجعلها تتضرع إلى خالقها أن يقتص لها من هذا المغازل الأشر الذى رضّض معضدها وشوّك بلحيته خدها ، وجرح شفتها ، إلى جانب اغتصابه لها فى غفلة من مقربيها وإخوتها — على حد زعمها وزعمه — ثم أنهى القصيدة برده الخبيث عليها يهديها إلى جواب إذا ما سئلت عما خلفه فى شفتها فقال :

قلت لها عند ذاك : يا سكنى لا بأس إنى مُجَرَّبٌ حَذِر
قولى لهم : بقة لها ظفر إن كان فى البق ماله ظفر

أما القصيدة الثانية فتحكى قصة مجلس لهو مع صاحبة له زارها مدعياً أنها هى التى دعته إلى زيارتها كما كان يفعل عمر بن أبى ربيعة الذى يكاد يكون غزله فى رأيى غزلا معكوساً — إن جاز التعبير — لأنه المعشوق والمرأة هى العاشقة تشكو الألم والعذاب والعذال وغيرها . ثم أرسلت إليه تخبره بنوم أهلها . بعد هذه المقدمة تحدث الشاعر عن كيفية استعداده للذهاب إذ أخذ زينته ، ولبس الجديد ، وهنا وقع فى مغالطة وكأنه قد نسى أنه أعمى عندما ذكر أنه ارتقى إليها فى مشيدة عالية ، ومن هنا نترك القصيدة تتحدث عن نفسها ، قال[2] :

ولم أدعْ زينةً حتى لبست لها من الجديد لكى ألْمِمْ بهن غدا

(١) راجع القصيدة فى ديوانه ٣ / ١٧٠ — ١٧٢ .
(٢) ديوان بشار ٢ / ١٩٥ — ٢٠٠ .

فى ليلة خلف شهر الصوم ناقصةٍ تسعاً وعشرين قد أحصيتها عددا
حتى ارتقيت إليها فى مشيدة دون السماء تناغى ظلها صَعَدا
لما رأت لمحة منى مُرعَّثـــة خُضْرًا وحُمْرًا وصُفْرًا بينها جُددا
قالت لتربٍ لها كانت موطّنةً جاء المُرعّثُ فاثنى عندك الوُسُدا
وأحسنى حين تلقيه تحيته وألّا تكونى إذا حدثتِنا وتِدا
خفّى وعودى إنَّ حاجتنـــا دون القريبة فى قلبين قد كَمِدا
طال التنائى فكل غير مُتَّرك حتى تَرَىْ عاتباً منا ومُصْطردا[1]
حتى التقينا فمن شكوى ومعتبةٍ تكرّها لا نخاف العين والرَّصَدا
غاب القذى فشربنا صفو ليلتنا حِبَّيْن نلهو ونخشى الواحد الصمدا

ويسترسل فيذكر أنه بعد أن انتهيا من المعابثة ، ورضى كل منها عن صاحبه ، قامت فجاءت بالخمرة فظلا يشربان حتى موعد بزوغ الفجر إذ ودع كلٌّ صاحبه وذهب إلى شأنه والدموع تنهمر من عينيها . وبعد أن قال قبل قليل إنهما قضيا صفو ليلتهما يلهوان يأتى فى آخر القصيدة وهو ما لا نميل إلى تصديقه ليقول :

وقمت لم أقضِ منها إذ خلوت بها إلا الحديث وإلا أن أمسّ يدا
حتى خرجت فكان الدهر مُنْذَحِلاً بين القرينين حلّالاً لِما عُقدا[2]

على هذه الشاكلة كانت أكثر أيام بشار التى ما انفك يذكرها ويحن إليها كلما واتت الفرصة ، ويأسف على انقضائها وزوالها أسف المتألم الحزين وبخاصة بعد أن منعه المهدى من أن يقول فى الغزل ، فراح يستعيد فى ذهنه تلك الذكريات والأيام التى تُذكّر بأيام سابقيه من الشعراء ، فذكر أيامه (بالجديد) و (ذى ضال) و (ذى ضاح) وهو فى هذا أقرب إلى تقليد القدامى من أى شىء آخر ، والأبيات التالية من أحسن ما يمثل أسف بشار وحزنه ، قال[3] :

---

(١) المصطرد : ذو الغضب والفيض .
(٢) المنذحل : الذى أصاب الذحل وهو أخذ الثأر .
(٣) ديوان بشار ٢ / ١١٧ – ١١٨ .

تمتعت من ود الشباب الذى مضى ... مع البيض أسقى ريقهن مع الرّاح
لقد كان يومى بالجَديد مشهرًا ... وأيام ذى ضالٍ ويوم بذى ضاح[١]
ليالى أغدو بينهن مُرفّلا ... أُحَبُّ وأُعطى حاجتى غير ملحاح
فغيّر ذاك العيش تاج لبسته ... وطاعة مهدىٍّ كفتْ قول نُصّاح

ولقد بلغ الإسفاف والفحش ببشار حدًّا بعيد المدى حتى إنه لم يعد يخجل من ذكر الأعضاء التى يستفحش ذكرها ويتفنن فى وصفها فى غزله بكل وقاحة كما فعل مع إحدى صاحباته واسمها (طيبة)، إذ وصفها وصفاً دقيقاً كاملا وجاء على كل عضو فى جسمها[٢]. ولكن من الحق أن يقال إن بشاراً مسبوق فى هذا الوصف، سبقه إليه الشاعر الماجن (عمار ذو كناز)[٣] الذى وصف عضو صاحبته وصفاً تفصيلياً ودقيقاً فى ثلاثة عشر بيتاً حتى قيل إن الوليد بن يزيد أمر له على هذا الشعر بعشرة آلاف درهم[٤].

ليس غريباً إذن أن تكون مغبة هذا الغزل وخيمة على بشار بعد أن شاع وانتشر فى البصرة وغيرها حتى روى أبو الفرج: «عهدى بالبصرة وليس فيها غزل ولا غزلة إلا يروى من شعر بشار[٥]». لذلك هب رجالات البصرة فى بادئ الأمر يلومونه على شتم أعراض الناس والتغزل فى نسائهم، ففى الأغانى أن مالك بن دينار لامه ونهاه ولكنه لم يأبه له[٦]. وكذلك تعرض له الحسن البصرى أحد رجالات الدين المشهورين فعابه وشهر به، وأشار بشار إلى ذلك فى شعره[٧]. يبدو أن المسألة وصلت مرحلة

---

(١) الجديد: موضع بالبصرة. ذو ضال: موضع به ضال وهو السدر البرى. ذو ضاح: اسم مكان.

(٢) انظر: ديوان بشار ١ / ٢٠٥.

(٣) هو عمار بن عمرو بن عبد الأكبر، يلقب ذا كناز، همدانى صليبه، كوفى، من طبقة مطيع بن إياس وحماد عجرد، كانوا يتنادمون ويجتمعون، ولم يسمع له خبر فى الدولة العباسية (ترجمته فى: الأغانى — ساسى — ٢٠ / ١٧٤).

(٤) الأغانى (ساسى) ٢٠ / ١٧٤.

(٥) الأغانى ٣ / ١٤٩.

(٦) الأغانى ٣ / ١٧٠ و ٦ / ٢٤٥.

(٧) المصدر السابق ٣ / ١٦٩ و ٦ / ٢٤٤.

حامية من الخطورة والشدة ، إذ اشتدت الحملة على بشار والتشهير به حتى قال سوار بن عبدالله الأكبر ومالك بن دينار : « ما شيء أدعى لأهل هذه المدينة ـ البصرة ـ إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى »[١] ، أما واصل بن عطاء فكان يقول : « إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد[٢] ». وهنا كان تدخل الخليفة المهدى ضرورة لازمة لإيقاف بشار عند حده ونهيه عن القول فى الغزل حتى ولو كان تدخله إرضاء لخواطر الجماهير وتهدئة لمشاعرهم . وقد شهد المهدى نفسه بعد أن سمع (رائية) بشار المشهورة أنه : « بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب »[٣] وما كان من بشار إلا أن انصاع وصدع مكرهاً لأمر الخليفة ، ولم يعد يسمع منه بعد ذلك الوقت إلا تنهدات وحسرات على أيامه الماضيات ، وذكرياته الخاليات كما مر فى أبيات تقدمت . ومما يدل على رضوخه القسرى فلتاته الشعرية التى تلقانا فى ثنايا قصائده من مثل قوله[٤] :

ولولا أمير المؤمنين سقيتها أواماً يناجينا لها حيث حلّتِ

وقوله[٥] :

ولولا القائم المهـدى فينا حلبت لهن ما وسع الإناء
هجرت الآنسات وهن عندى كماء العين فقدهما سواء

ومما يدل على شدة تحسره وعدم رضاه بقرار المهدى ذاك كثرة ترديده لهذا المنع وخبره فى قصائده[٦] . وكأنه إنما كان يعزى نفسه ويذكرها بوعيد المهدى وخشيته وهو القائل[٧] :

وقد نهانى الإمام فانصرفتْ نفسى له والإمام يُرْتقبُ

---

(١) و (٢) الأغانى ٣ / ١٨٢ .
(٣) الأغانى ٣ / ١٨٤ .
(٤) ديوان بشار ٢ / ٩ .
(٥) المصدر السابق ١ / ١٠٤ .
(٦) انظر على سبيل المثال : ديوان بشار ١ / ٢٧٧ ، ٣٦٣ و ٢ / ١٠ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ١١٠ وغيرها .
(٧) ديوان بشار ١ / ٢٤١ .

آليت يأبى الصبا وأتبعه هيهات بيني وبينه نَجَب[١]

هذا هو بشار فى غزله الفاحش الذى خرج فيه على تقاليد المجتمع وآدابه حتى قال عنه الدكتور شوقى ضيف : إنه هو الذى دفع الشعراء من بعده فى تصوير المتاع الحسى حتى الشاذ منه[٢] .

الغزل الحسى غير الفاحش :

هذا الضرب من الغزل هو الرافد الثانى للاتجاه الحسى . وأكثر شعرائه من أصحاب الرافد الأول ، والفارق بين الرافدين أن الشعراء فى الأول قد تمادوا فى الوصف والفحش وخرجوا على الشرائع والأعراف والتقاليد ، أما فى الثانى فقد كانوا معتدلين فى الغالب ، إذ قصروا غزلهم على الحديث عن جمال المرأة وذكر مفاتنها وتشبيهها بتشبيهات فيها القديم المعروف عند من سبقهم من الشعراء ، وفيها الجديد الذى استمدوه من واقع عصرهم وما وصل إليه مجتمعهم من تقدم حضارى . كانوا يعجبون بالجمال أينما وقعوا عليه فيصورونه ويقولون فيه ، وكانوا فى غزلهم هذا دائمى النقلة كالنحلة من زهرة إلى أخرى ، وكانت الأوصاف الغالبة فيه أوصافاً قديمة طالما رددها الشعراء فى الجاهلية والإسلام . فى الأبيات التالية يصف مسلم بن الوليد جمال صاحبته عامة ويتحدث عن ثغرها وطرفها وقدها وكشحها حديث الشاعر القديم ولكنه لم يخل من جديد استمده الشاعر من واقع بيئته ، قال[٣] :

كلامها خلوب إلى الصبا يقود
وطرفها مريض ولحظها صيود
وسْنَى ولا كوسنى تميت من تريد
كالبدر بعد عشرة قارنه السعود

---

(١) نجب : واد عظيم فى ديار محارب
(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ١٥٤ .
(٣) ديوان مسلم ١٩٥ .

وثغرها شتيت وريقهـا بَرود[١]

كأن فيه مسكاً خالطه قنديد[٢]

وقدّهـا ممشوق مُنعّم مقـدود

وكشحها لطيف مهفهف خضيد[٣]

كأنه قضيب فى غرسه يميد

وردفها ثقيل بخصرها يميـد

كأنه كثيب لبّده الجليد

لها من الظباء مقلّد وجيـد

فالأبيات لا جديد فيها من الأوصاف إلا تشبيهه ردفها الثقيل بالكثيب الذى لبده الجليد، وهو شيء جديد لم يسبق إليه الشعر العربى فى جاهليته وإسلامه، الذى اكتفى بتشبيه ردف المرأة بالكثيب وحسب ، ولكن مسلماً حاول أن يجمع بين القديم والجديد ، بين كثبان الجزيرة وجليد أرمينيا كما يقول فؤاد ترزى[٤] ، ومن الأوصاف التى جمعت بين القديم والحديث ما وصف به ربيعة الرقى صاحبته سعاد من أنها جنة ريحان، يفوح أرجها ، أو روضة تساقط عليها المطر الغزير فأنبت فيها أنواع النبات المختلفة ، ثم إنها إما بيضة فى نقاً أو درة بحرية ، وهى إلى ذلك مرتجة الأرداف تمشى الهوينى ، كما يمشى الشارب المترنح[٥] .

وأنت جنة ريحان لها أَرَج أو روضة نُضِحَتْ بالوبل والدِّيم

---

(١) الشتيت : الأفلج ، متباعد ما بين الأسنان .

(٢) قنديد : الكافور أو طيب يعمل بالزعفران ، أو الخمر المطيب .

(٣) خضيد : الخضد فى الأصل ضمور الشار وانزواؤها ، والخضيد : الشجر الذى قطع شوكه ، وهنا معناه المثنى .

(٤) مسلم بن الوليد ١٥٩ .

(٥) طبقات ابن المعتز ١٦٨ ثم انظر ١٦٠ أيضاً .

أو بيضة فى نقاً ، أو درة خرجت من زاخر مزبد الآذىّ ملتطم[١]
مرتجة الردف ، مهضوم شواكلها تمشى الهوينى كمشى الشارب الثّمل

وربما كان جمال البشرة وصفاء الأديم واعتدال القوام ودقة الأصابع من العوامل المشتركة فى جمال الجوارى اللائى تغزل فيهن الشعراء ، فهذا حماد يتحدث عن واحدة منهن فيقول[٢] :

جمعتْ ما شئت من حُسْـ ـنٍ ومن دَلٍّ رخيم
فى اعتدال من قوام وصفاء من أديم
وبنـان كالمـدارى وثنايـا كالنجـوم

ويقول مطيع فى جوهر[٣] :

بيضاء واضحة الجبيـ ـنِ كأن غرتها نهار

ويقول فيها أيضاً[٤] :

جارية أحسن من حَلْيها والحلى فيه الدر والجوهر
وجرْمها أطيب من طيبها والطيب فيه المسك والعنبر

وفتن الشاعر ابن أبى الزوائد بجمال صاحبته (هند) فتوناً عجيباً حتى رأى أن الله لم يخلق مثلها فيما شاهد ورأى ، فكل ما فيها كان يثير الفتنة ، شكلها ، مقلتاها ، بنانها ، فمها ومقبلها ، مشيها وتأودها . . كل هذه المواطن الرائعة كانت تنسيه ما كان يعده لها من كلام فلا يستطيع أن ينبس ببنت شفة هيبة وإجلالاً ، فقال[٥] :

---

(١) النقا : القطعة من الأرض المحدودبة . الآذى : الموج .
(٢) الأغانى ١٤/٣٣٩ .
(٣) شعراء عباسيون ٥٢ .
(٤) شعراء عباسيون ٥٥ .
(٥) الأغانى ١٤/١٢٨ .

كالشمس فى شرقها إذا سَفرَتْ ... عنها ومثلُ المهاة ملتثمهْ
ما صوّر الله حين صورها ... فى سائر الناس مثلها نَسَمهْ[١]
كل بلاد الإله جئت فما ... أبصرت شِبْهاً لها - وقد علمه-
أنثى من العالمين تشبهها ... عابسة هكذا ومبتسمه
فتانة المقلتين ، مخطفة الـ ... أحشاء ، منها البنان كالعَنمه[٢]
إذا تعاطت شيئاً لتأخذه ... قلت : غزال يعطو إلى برَمَهْ[٣]
يا طيب فيها وطيب مقبلها ... والقرب منها فى الليلة الشبمه..
آتى مُعدًّا لها الكلام فما ... أنطق من هيبة ولا كلمه
هذا الجمال الذى سمعت به ... سبحان ذى الكبرياء والعظمه.
مَنْ أبصرت عينه لها شَبَهاً ... حل عليه العذاب والنِّقَمَهْ

ومن أحسن الشعراء وصفاً لجمال المرأة فى هذه الفترة ربيعة الرقى الذى أوتى من العذوبة والسهولة والرقة حظًّا كبيراً ، قال فى صاحبته (عتبة)[٤]:

فلما أن رآك الناس قالوا : ... تعالى الله رب العالمينا
بدت منك الروادف مشرفات ... روادف لم تدع للناس دينا
وقد أعطاك ربك فاشكريه ... جمالا فوق وصف الواصفينا
فما الشمس المضيئة يوم دَجْنٍ ... بأحسن منك يوم تبذّلينا
إذا أقبلتِ رُعْت الناس حسناً ... وإن أدبرتِ قيّدت العيونا
لو أن الملوك رأوك يوماً ... لخروا من جمالك ساجدينا
ولو أن النساء ملكن أمْرًا ... لكنت إذًا أمير المؤمنينا

---

(١) نسمه : الإنسان أو كل دابة فيها روح . والأنسام : الناس .
(٢) العنم : شجر له ثمر أحمر .
(٣) العطو : التناول ورفع الرأس واليدين . البرمة : ثمر الطلح أو ثمر الأراك .
(٤) طبقات ابن المعتز ١٦٣ .

ولم يكتف بهذا فراح يرسم لواحدة أخرى من صاحباته صورة خاصة فى جمالها وخلقها فجعلها نسيج وحدها مخلوقة من مسك ، والناس من طين ، وأن الله لم يخلق مثلها بعد سيدنا يوسف عليه السلام فى العرب والعجم[١] :

خُلِقْتِ من مِسْكةٍ ، والناس خَلقُهُم ... من لازب الطين ، من صلصالة القتِم[٢]

ما صور الله إنساناً كصورتكم ... من بعد يوسف فى عرب ولا عجم

أما الحسين بن مطير فقد رسم صورة جميلة لصاحبته سلمى وتحدث عن مقومات جمالها المتمثلة بثقل أردافها ، ودقة خصرها ، وعذوبة ثناياها ، وصغر نهديها ، وسواد شعرها ، وبياض خديها ، وأكثر من ذلك فإنها تزين عقودها بأحسن مما تزينها العقود[٣] :.

قد جَعَلت فى حبة القلب والحشا ... عِهَادُ الهوى تُولى بشوق يعيدها

بمرتجة الأرداف ، هيف خصورها ... عذاب ثناياها ، عجاف نهودها

وصُفر تراقيها ، وحمر أكفها ... وسود نواصيها ، وبيض خدودها

مُخصّرة الأوساط زانت عقودَها ... بأحسن مما زينتها عقودها

من كل ما تقدم نتبين أن محاسن النساء التى فضلها العربى منذ القدم ، مازال يحبذها ويتمسك بها الشعراء ويذكرونها فى غزلهم فى هذه الفترة وفيما تلاها من فترات مع تفاوت فى الدرجة والكثرة . قيل لأعرابى : أتحسن صفة النساء ؟ قال : « نعم ، إذا عذب ثناياها ، وسهل خداها ، ونهد ثدياها ، وفعم ساعداها ، والتف فخذاها ، وعرض وركاها ، وجدل ساقاها ، فتلك هم النفس ومناها »[٤].

أما بشار بن برد فكان أكثر شعراء هذا القرن وصفاً لمفاتن صواحبه وأجسامهن وكأنه مبصر يصف ما تقع عليه عيناه ، وهنا نرى أنه إما أن النساء كانت توصف له ، أو أنه تخيل صورة للمرأة الجميلة فى ذهنه فراح ينسج على منوالها فى شعره

---

(١) طبقات ابن المعتز ١٦٨ .

(٢) القتم : الضارب إلى السواد .

(٣) زهر الآداب ٤ / ١٠٠٦ ومعجم الأدباء ١٠ / ١٧٦ مع بعض الاختلاف .

(٤) المحاسن والأضداد — للجاحظ / ١٦٨ .

مكثراً من الأوصاف القديمة مما يدل على استيعابه لأوصاف القدامى والسير على منهاجهم . جاءت أوصاف بشار إما مجموعة فى قصائد بعينها أو موزعة فى ثنايا القصائد . والأبيات التالية أكثر شعره استيعاباً لهذه الأوصاف فى قصيدة واحدة فى صاحبته (طيبة) ، قال[١] :

وثغر بارد عذب جرى فيه الأعاجيب
ووجه يشبه البدر عليه التاج معصوب
وعين تسحر العين وما فى سحرها حوب[٢]
ووحف زان متنيك وزانته التقاصيب[٣]
وجيد يشبه الدر كجيد الرئم سُلْهوب[٤]
ونحر بين حُقَّيْنِ يشُفّ العين مشبوب[٥]
عليه الجوهر الأخضـ ـر والياقوت منصوب

فى هذه الأبيات وصف ثغرها ووجهها وعينها وشعرها وجيدها وصدرها ، وشبه بعضها بتشبيهات قديمة مستعملا بعض الكلمات القاموسية من مثل (الوحف) و (التقاصيب) و (سلهوب) وهذا راجع إلى مقدرته اللغوية وتمكنه منها . كرر بشار أكثر هذه الأوصاف والمحاسن فى قصيدة له فى عبدة[٦] . وفى قصيدة أخرى يعاود أكثرها ، فقرون شعر صاحبته على ظهرها كالأساود ، ومنطقها كحلى العرائس وعيناها يجرى فيهما الردى ، أما وجهها فحسن ، وأما ثدياها فيدين لهما الناسك المتعبد ، ولا يموت من يذوق حلاوة ثغرها . أما ساقها فتزين خلخالها ، وأما أسنانها فتلألأة براقة ، وهى بعد ذلك كله ضخمة ممتلئة ، فى أعضائها تناسق وتناسب[٧] .

---

(١) ديوان بشار ١ / ٢٠٥ .
(٢) الحوب : الإثم .
(٣) الوحف : الشعر الكثيف الأسود ، التقاصيب : جمع تقصيبة وهى الخصلة من الشعر ملتوية .
(٤) السلهوب : السلهب : الطويل من الناس والخيل .
(٥) يشف : يوهن . مشبوب : صفة نحر .
(٦) ديوان بشار ٢ / ٥٣ .
(٧) ديوان بشار ٢ / ١٠٨ — ١٠٩ ثم انظر أيضاً : ٢ / ١٧٨ و ١٧٩ .

أما صاحبته عبدة التى شُهر بها كثيراً فوصفها وتحدث عنها وكأنه شاعر جاهلى فى أوصافه وألفاظه ، قال[١] :

هى كالشمس فى الجلاء وكالبد ... ر إذا قُنِّعَت عليها الرداء[٢]
فخمة ، فعمة ، برود الثنايا ... صَعْلة الجيد ، غادة غيداء[٣]
أُزّرت دِعْصَةً وتمت عسيباً ... مثل أَيْم الغضا دَعاه الأَبَاءُ[٤]
وثقال الأوصال سربلها الحسـ ... ـن بياضاً ، الرَوْقة البيضاء[٥]

وفى غزل بشار يجد الباحث أشتاتاً من هذه الأوصاف لأعضاء صواحبه ومحاسنها فى أماكن متفرقة من ديوانه[٦] . ومن المظاهر القديمة فى الغزل الحسى ما جاء فى الأبيات التالية للشاعر البصرى الحكم بن قنبر[٧] الذى شبه صاحبته فى جمالها بالغزال وبالشمس والقمر . قال[٨] :

ويلى على من أطار النوم وامتنعا ... وزاد قلبى على أوجاعه وجعا
ظبى أغر ترى فى وجهه سُرُجاً ... تُعْشى العيون إذا ما نوره سطعا
كأنما الشمس فى أثوابه بزغتْ ... حسْناً ، أو البدر فى أردانه طلعا

أما الشاعر ربيعة الرقى فشبه صاحبته « عثمة » بالغزال عامة ، وشبه عينيها

---

(١) ديوان بشار ١ / ١١٧ — ١١٨ .
(٢) شبهها وهى مقنعة بالرداء الأسود بالقمر فى سواد الأفق .
(٣) الفخمة : الضخمة . الفعمه : الممتلئة لحماً . برود : باردة . صعلة الجيد : دقيقة العنق .
(٤) الدعص : القطعة المستديرة من الرمل أى لبست الأزرة كدعصة . العسيب : جريد من النخل ونصبها على الحال للتشبيه البليغ . الأيم : ذكر الحية الأبيض اللطيف . الآباء : القصب ، جمع أباءة (القصبة) والمعنى أنها تمشى فى تثن وسرعة كالحية البيضاء أرادت أن تدخل أجمة قصب .
(٥) ثقال ، يقال للمرأة ذات الكفل العظيم والمعنى هنا الممتلئة . الأوصال : المفاصل . الروقة : الجمال الرائق .
(٦) انظر : على سبيل المثال ديوان بشار ١ / ١١٨ ، ١١٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ وغيرها .
(٧) هو الحكم بن محمد بن قنبر المازنى من شعراء الدولة العباسية ، كان يهاجى مسلم بن الوليد مدة ثم غلبه مسلم (انظر : الأغانى ١٤ / ١٦٢) .
(٨) الأغانى ١٤ / ١٦٤ .

بعينى بقر الوحش ، وجيدها بجيد الظبى[١].

نقع عند الشعراء على أوصاف متفرقة لمحاسن صاحباتهم ، فهذا مطيع يتحدث عن إحداهن معجباً بوجهها وخالها الفريد . ومشيتها التى تشبه مشية الثعبان[٢]:

أكليلهـــا ألوان ووجهها فتـــان
وخالهـــا فريـــد ليس لها جيران
إذا مَشت تثَنّت كأنهـــا ثعبـــان
قد جُدلت فجاءت كأنهـــا عنـــان

ويبدو أنه كان معجباً بذوات الخال من النساء لأبيات له تدل على ذلك[٣].

وذكر الشعراء الحسيون ريق المرأة فشبهوه بالعُقار من مثل قول مطيع[٤]:

يشفى بريقتها السّقا م كأن ريقتها العُقار

وقوله[٥]:

كأنمـــا ريقتها «قهوة» صب عليها بارد أسمر

أما مسلم فلم يكتف بعد أن رشف من ريق صاحبته أن يشبهه بالخمرة ، بل جعله الخمرة نفسها وسلكه فى عداد أسمائها فقال[٦]:

أريقاً من رضابك أم رحيقاً رشفتُ فكنت من سكرى مفيقا
وللصهباء أسماء ولكن جهلت بأن فى الأسماء ريقا

والتفت الشعراء إلى حديث المرأة فأعجبهم وتحدثوا عن سحره وفتنته وما كان يثير فى نفوسهم حتى قال أبو نواس[٧]:

---

(١) المصدر السابق ١٦ / ٢٦٢ .
(٢) شعراء عباسيون ٧٠ .
(٣) شعراء عباسيون ٤٢ .
(٤) المصدر السابق ٥٢ .
(٥) المصدر السابق ٥٥ .
(٦) ديوان مسلم ٣٢٨ .
(٧) ديوان أبى نواس (آصاف) ٣٩٤ .

يصيد عقول الناس حسن كلامها وأحسن بها من قبل أن تتكلما

وقال أبو دلامة فى جارية الجُنيد النخّاس التى كان يتعشقها[١]:

فكلامها يشفى به سقمى فإذا تكلم عاد لى نكسى

كان بشار أكثر الشعراء تفنناً فى وصف كلام المرأة وحديثها ، وربما كان فى هذا أصدق منه فى أوصافه الأخرى ، لأنه إنما يتحدث عن أشياء غير معطلة حاستها عنده ، وربما كان فى إكثاره من هذا الوصف تعويض له عن حاسة البصر ، لأن فقدان البصر كما يقول علماء النفس يؤدى إلى زيادة الحواس الأخرى ويستدعى تسخيراً أكبر لها بحيث يركز العميان اهتمامهم لالتقاط وتفهم المعلومات غير البصرية معتمدين فى ذلك على الحواس الأخرى من مثل حواس السمع واللمس[٢]. إن أوصاف بشار وتشبيهاته فى هذا المجال لم تكن واحدة فى كل الحالات ، فمرة يشبه حديثها بتنوير النبات كما فى قوله[٣]:

إن « حبىً » سحرتنى بالأمانى والعـــدات
بدلا لِ وحديث مثل تنوير النبات

ومرة يشبهه بوشى الثياب فى قوله[٤]:

ولها مضحك كغر الأقاحى وحديث كالوشى وشى البرود

ومرة يشبهه بالخمرة فى قوله[٥]:

فبتُّ أبكى من حب جارية لم تجْزنى نائلا ولم تكَد
إلا حديثاً كالخمر لذته تكون سُكرًا فى الروح والجسد

---

(١) الأغانى ١٠ / ٢٧٠ .
(٢) راجع : سيكولوجية المرضى وذوى العاهات — لمختار حمزة . الصفحات ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .
(٣) ديوان بشار ٢ / ٣٨ .
(٤) ديوان بشار ٢ / ٢٧٢ ثم انظر أيضاً ٢ / ١٦٢ و ٣ / ٩ .
(٥) ديوان بشار ٣ / ٦٦ .

ومرة بأزهار الروض المختلفة الألوان فى قوله[١] :

وحديث كأنه قطع الروْ ض زَهَتْهُ الصفراء والحمراء

وإذا ما استثنينا بعض الفروق الطفيفة فى أوصاف النساء عند الشعراء نلاحظ أنهم يكادون يشتركون فى وصف صواحبهم وفى تشبيه أعضائهن وهيئاتهن بتشبيهات واحدة أو متقاربة — على الأقل — ، وقد فطن إلى هذه الناحية من القدماء شهاب الدين النويرى وتحدث عنها[٢]. وكم كان نجيب العقيقى محقًّا عندما أخذ على شعراء الغزل العربى عامة اهتمامهم بالصورة الخارجية للمرأة ووصفها بأوصاف متشابهة أو كالمتشابهة حتى قال : « ولو أن الله بعث شعراءنا وبعث عشيقاتهم بأوصافهن لما عرفوهن على أغلب الظن »[٣] . وإذا ما حاولنا تفسير ما ذهب إليه العقيقى بالنسبة للقرن الثانى فإننا نرى أن المرأة التى تغزل فيها الشعراء فى هذه الفترة لم يكن لها من سلاح غير الجسد وأدواته المختلفات التى وصفوها وتفننوا فى وصفها بغزلهم الحسى بضربيه السابقين . وإن كان الغزل العربى عامة فقيراً فى الجانب المعنوى فإنه فى هذا القرن أفقر منه فى أى زمن آخر .

ضرب آخر من الغزل :

وعلى الرغم من هذا الغزل الحسى بضربيه السالفين فإن الباحث لا يعدم أن يجد نماذج عند شعراء القرن الثانى ، وحتى عند الذين كان المجون ديدنهم والتهتك والفجور مذهبهم ، يبدو فيها أصحابها محبين صادقين بعواطفهم وأحاسيسهم ، تبرحهم الصبابة ، ويعذبهم الألم . وفيها شكوى وحرقة من هجران الحبيب وصدوده ، ولوم اللائمين ومراقبة العذال ، وغير ذلك من الأمور ؛ بحيث يستطيع الباحث أن يحكم بسهولة على هذا الحب المصطنع أكثره لأن أكثر الشعراء كانوا ميالين إلى القول فى الغزل وكأنه كان هواية ومتعة ، إذ وصل الحد بأحدهم إلى أن يعشق على الوصف

---

(١) المصدر السابق ١ / ١١٩ .

(٢) نهاية الأرب ٢ / ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٣) انظر : مقاله بعنوان (صورة الحبيبة فى الغزل العربى) . مجلة الكاتب المصرى السنة الثالثة . المجلد الثامن . العدد (٢٩) فبراير ١٩٤٨ . ص ١١٠ — ١١٨ .

والسماع . فى الأغانى أنه كان أبو نواس والفضل الرقاشى جالسين فجاءهما عمرو الورّاق وحدثهما عن جارية رآها ووصفها وصفاً حمل الرقاشى على أن يقول : « قد والله عشقتها ، فقال أبو نواس : أو تعرفها ؟ ! قال : لا والله ولكن بالصفة ، ثم أنشأ يقول :

صفاتٌ وظن أو رثا القلب لوعةً تضرّم فى أحشاء قلب متيم
تمثلها نفسى لعينىَّ فأنثنى إليها بطرف الناظر المتوسّم
يحملنى حبى لها فوق طاقتى من الشوق دأب الحائر المتقسم »[١]

مسكين ذلك الشاعر ، فقد تتيم على الوصف والسماع وأصبح يتحمل فى حبه الخيالى فوق ما يطيق فكان الحائر المتقسم . فهل كنا نقول هذا لو أننا قرأنا شعره دون أن نعرف مناسبته ؟! . بل كيف نصدق الرقاشى وهو فى طليعة الداعين إلى المجون والخلاعة والمعروف بوصيته فى ذلك فى قصيدة ذكر صاحب الأغانى مطلعها[٢].
ومثلما كذبنا الرقاشى نكذب مطيع بن إياس الذى يقول فى (رئم) الجارية[٣] :

يا رئم قد أتلفت روحى فما منها معى إلا القليل الحقيرُ
فأذنبى إن كنت لم تذنبى فى ذنوباً إنَّ ربىّ غفور
ماذا على أهلك لو جُدْت لى وزرْتنى يا رئم فيمن يزور
هل لك فى أجرٍ تجازىْ به فى عاشق يرضيه منك اليسير
يَقْبل ما جُدْتِ به طائعاً وهو وإن قَل لديه كثير

ونلاحظ فى أبيات غيرها كلفه الشديد بها ومرضه من أجلها[٤] . ويقول فى أخرى إنه لولاها لما أقام ببغداد[٥] .ولكن هذا الحب الزائف لم يكن إلا وسيلة من وسائل التوصل إلى الجوارى اللائى كان يبدو منهن شىء من الصدود والتمنع فى

---

(١) الأغانى ١٦ / ٢٥٠ .
(٢) المصدر السابق ١٦ / ٢٤٦ .
(٣) شعراء عباسيون ٥٥ ثم انظر ٤٣ أيضاً .
(٤) شعراء عباسيون ٦٠ .
(١) شعراء عباسيون ٦٨ .

بعض الأحايين تدللا وتيهاً وليس عن عفة وأخلاق ، فكل ذلك الحب الذى صوره مطيع وتحدث عنه ، وكل ذلك السقام تشفيه قبلة واحدة منها إذا هى نواته[١] :

يا ريم فاشفى كَبِدا حَرّى وقلباً شَغِفَا
ونوليني قبلة واحدة ثم كفى

والذى يبدو أن مطيعاً كان قُلّباً حُوّلا فى حبه وعلاقاته مع الجوارى ، يكاد يخاطبهن باللهجة نفسها ، فما قاله لرئم السابقة قاله لجارية أخرى تدعى (مكنونة) مدعياً غرامه بها شاكياً ما كان يلاقيه فى هواها من صنوف العذاب والهوان ، قال[٢] :

يارَبِّ إنك تعلم أنى بمكنون مغرم
وأنى فى هواها ألقى الهوان وأعظم

وعلى شاكلة مطيع بن إياس كان المؤمل بن أُميل المحاربى الذى تقدم ذكره فى الغزل الفاحش ، فقد كان يتردد فى حبه بين (هند) و (بهار) ، وفى هند — وكانت امرأة من أهل الحيرة — يقول[٣] :

شفّ المؤملَ يوم الحيرة النظرُ ليت المؤمل لم يخلق له بَصَرُ
شكوت مابى إلى هند فما اكترثت ما قَلْبُها؟ أحديد أنت أم حجر؟
لا تحسبينى غنيًّا عن مودتكم فلى إليك وإن أيسرت مفتقر
يكفى المحبين فى الدنيا عذابُهُم والله لا عذبتهم بعدها سَقَرُ

ويقول أيضاً[٤] :

برى حبها لحمى ولم يبق لى دما وإن زعموا أنى صحيح مسلم

---

(١) المصدر السابق نفسه ٦٠ .
(٢) المصدر السابق ٦٦ .
(٣) معجم الشعراء ٢٩٨ ونكت الهميان ٢٩٩ .
(٤) الأغانى (ساسى) ١٩ / ١٤٩ .

فلم أر مثل الحب صح سقيمه ولا مثل من لم يعرف الحب يسقم
ستقتل جلدًا بالياً فوق أعظم وليس يبالى القتل جلد وأعظم

ويترك هند ليعيد الأسطوانة نفسها على (بهار) فيقول[1] :

أبهار قد هيجت لى أوجاعا وتركتنى عبدًا لكم مطواعا
لحديثك الحسن الذى لو كُلِّمَتْ وحش الفلاة به لجئن سِراعا

قبل الانتقال إلى غير مطيع والمؤمل من الشعراء ممن على هذه الشاكلة لا بد من الوقوف عند بعض الشعراء الذين يبدون أكثر صدقاً فى غزلهم وحبهم من أولئك ، لأن فى سيرهم وأخبارهم ما يشجع على أبعادهم عن الدائرة التى نضع فيها مطيعاً وبشاراً ومسلماً وأبا نواس وغيرهم. فللشاعر داود بن سلم[2] غزل يدل على صدق فى العواطف والمشاعر وهو ينبئ عن إحساس صاحبه ويكشف عن مذهبه فى الأبيات التالية التى تُذكّر بقصيدة للخنساء فى رثاء أخيها صخر ، قال الشاعر[3] :

وما ذرَّ قَرْنُ الشمس إلا ذكرتُها وأذكُرها فى وقت كل غروب
وأذكرها ما بين ذاك وهذه وبالليل أحلامى وعند هبوبى
وقد شفنى شوق وأبعدنى الهوى وأعيا الذى بى طبَّ كُلِّ طبيب
وأعجب أنى لا أموت صبابة وما كمَدٌ من عاشق بعجيب
وكل محب قد سلا ، غير أننى غريب الهوى ، ياويح كل غريب
وكم لامَ فيها من أخٍ ذى نصيحةٍ فقلت له : أقْصِرْ فغيرُ مُصيب
أتأمر إنساناً ، بفرقةِ قلبه أتصلح أجسامٌ بغير قلوب؟!

وللشاعر ابن أبى الزوائد الذى كان يؤم الناس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه

---

(١) معجم الشعراء ٢٩٨ – ٢٩٩ .
(٢) من مخضرمى الدولتين ومن ساكنى المدينة ، اختلف الرواة فى ولائه (انظر الأغانى ٦ / ١٠ وما بعدها) .
(٣) الأغانى ٦ / ٢٠ .

وسلم بالمدينة ، أبيات متفرقات فى جارية سوداء كان يحبها اسمها (حُجَيج) حتى تمنى من شدة عشقه لها أن تكون عربية أو يكون هو أعجمياً ليتزوج منها فقال[١] :

يا ليت أن العَرَبَ استلحقوا ... ريم الصهيبيين ذاك الأَجم[٢]

وكان منهم فتزوجتـــه ... أو كنت من بعض رجال العجم

وذكر أنه كان يتألم لفراقها وبُعْدها عنه ، ولم ينكر أنه كان يجتمع بها لأنه كان عفيفاً فى علاقته معها لا يتدنى إلى إفحاش أو تعهر ، قال[٣] :

حُجَيْجُ أمسى جَدَادُ حاجزةٍ ... فليت أنَّ الجَداد لم يَجِنِ[٤]

وشَتَّ بَيْنٌ وكنت لى سكناً ... فيما مضى كان ليس بالسكنِ[٥]

قد كان لى منك ما أُسَرُّ به ... وليت ما كان منك لم يكن

نعف فى لهونا ويجمعنا الـ ... ـمجلس بين العريش والجُرُن[٦]

ومما يدل على سلامة مذهبه وبعده عن الفحش والانزلاق فى دروب الرذيلة موقفه من قيان عطعط فيما تقدم[٧]. وربما يرجع السبب فى هذا إلى سلوكه الدينى وصحة مذهبه بحيث جعلا منه امرأ معتدلا ، مستقيماً فى حبه وعلاقاته وسلوكه .

ومن هذا الصنف من الشعراء كان الحسين بن مطير كما يبدو . وفى شعره أنه كان يتعشق اثنتين لا واحدة ، الأولى أسماء ، وله فيها قصيدة ذكرها صاحب (زهر الآداب) فى باب (كتمان الحب) استشهدنا ببعض أبياتها فيما مضى عند الحديث عن الأوصاف الحسية القديمة ، وأما القسم الآخر منها فيتحدث فيه عن لوعته وبقائه على حبها ، قال :

---

(١) المصدر السابق ١٤ / ١٢٢ .

(٢) الصهيبيون : نسبة إلى صهيب بن سنان الرومى . الأجم : الذى ليس له قرنان .

(٣) الأغانى ١٤ / ١٢١ .

(٤) جد النخل : صرمه وقطعه ، وأمسى هنا قامة . حاجزة : اسم المكان الذى كان فيه النخل .

(٥) شت : فرق .

(٦) العريش : اسم مكان . الجرن : موضع تجفيف التمر وهو له كالبيدر للحنطة .

(٧) انظر : ص١٢١ من هذا الكتاب .

قضى الله يا أسماء أن لست بارحاً ... أحبك حتى يغمض العين مغمض
فحُبُّك بلوى غير أن لا يسرنى ... – وإن كان بلوى – أننى لك مبغض
فواكبدًا من لوعة البَيْن كلما ... ذكرتُ ومن رفض الهوى حين يرفض
ومن عبرةٍ تذرى الدموع وزفرةٍ ... تقضقض أطراف الحشا ثُمَّ تنهض
فيا ليتنى أقرضت جَلْدًا صبابتى ... وأقرضنى صبرًا على الشوق مُقْرِضُ
إذا أنا رُضْتُ القلب فى حب غيرها ... بدا حبها من دونه يتعرض

أما الثانية فكانت تدعى سلمى ، وتبدو على الشاعر فى حبه لها عفة العشاق وحياء المحبين ، فقد شكا العذال واللائمين ، ولكنه مع هذا أكّد إخلاصه ورضاه من صاحبته بالقليل فقال[1]:

ألا حبذا البيت الذى أنت هاجره ... وأنت بتلماح من الطرف ناظرُهْ
أصدُّ حياءً أن يُلمَّ بى الهوى ... وفيكَ المنى لولا عدو أحاذره
وفيكَ حبيب النفس لو تستطيعه ... لماتَ الهوى والشوق حين تجاوره
فإن آتِه لم أنجُ إلاَّ بظنةٍ ... وإن يأته غيرى تُنَطْ بى جرائره
فإن يكن الأعداء أحموا كلامه ... علينا ، فلن تحمى علينا مناظره[2]
أحبك يا سلمى على غير ريبة ... ولا بأس فى حب تَعِفّ سرائره
ويا عاذلى لولا تعاسة حبها ... عليك لَمَا بالَيْت أنك خائره
ومَنْ قد لحاه الناس حتى اتقاهم ... ببغضى إلا ما تُجِنُّ ضمائره
أحبك حبًّا لن أعنِّفَ بعده ... محبًّا ، ولكنى إذا لِيمَ عاذره
لقد مات قبلى أول الحب فانقضى ... ولو مِتُّ أضحى الحب قد مات آخره
كلامك يا سلمى وإن قل نافعى ... فلا تحسبى أنى وإن قل حاقره

---

(١) معجم الأدباء ١٠ / ١٧٣ – ١٧٤ .
(٢) أحموا : منعوا .

حسب هذا الشعر وصاحبه شهادة ما قال فيه الأصمعى : « لوكان شعر العرب هكذا ما أثِمَ منشده »[١] .

نعود إلى الطائفة الأولى من الشعراء فنقول : إن غزلهم لم يكن ماجناً كله ، ففيه ما يشعر أو يوهم — على أقل تقدير — بأنهم كانوا عشاقاً ومحبين ، تعذبوا بنار الحب ، وذاقوا أفاويقه ومراراته ، ولهذا كان لابد من الوقوف معهم وقفة المتأمل الفاحص للنظر فى شعرهم قبل الحكم عليه . فالحسين بن الضحاك الذى عرفناه فى غزله الغلمانى وغزله الفاحش فى المؤنث ، وكيف أنه كان يفضل النساء على الغلمان ، نقع له فى هذا الصدد على أشعار تقطر عاطفة ولوعة حتى إنه كان يشعر بالغُرْبة إذا ما فارق صاحبته ساعة واحدة ، كأن لم يكن قبله من متيم ، ثم يغرق فى الخديعة والمراوغة عندما يشكو إلى الله ما يلاقيه ولكن بلا فائدة ، يقول[٢] :

كأنى إذا فارقت شخصك ساعة ... لفقدك بين العالمين غريب
وقد رُمْتُ أسباب السلو فخاننى ... ضمير عليه من هواك رقيب
فمالى إلى ما تشتهين مسارع ... وفعلك مما لا أُحب قريب
أغرك صفحى عن ذنوب كثيرة ... وغضّى على أشياء منك تريب
كأن لم يكن فى الناس قبلى متيم ... ولم يك فى الدنيا سواك حبيب
إلى الله أشكو أن ذُكرْت فلم يكن ... لشكواى من عطف الحبيب نصيب

ويتحدث فى مقطوعة أخرى عن كثرة عتاب صاحبته له ظنًّا منه أنها إنما تفعل ذلك لامتحان صبابته — مع علمها بمكنون نفسه — كما يقول — ، وتجنى الذنوب عليه ، ويطلب إليها فى النهاية أن تشفع له سقمه وعذابه فقد براه حُبها[٣] . لا يملك الباحث بعد هذا إلا أن يشك فى صدق هذا الشعر وحب صاحبه وجديته ، لأنه ما عرف إلا مهتكاً بالغلمان والنساء وكانت له فيهن مذاهب وآراء . وربما حمله التقليد وحب التنويع والقول فى أنواع الغزل المختلفة على القول فى مثل هذا الشعر

---

(١) معجم الأدباء ١٠ / ١٧٣ .
(٢) أشعار الخليع ٢٦ .
(٣) المصدر السابق ٣٢ .

حملا ، حتى يقول فى كلّ ولا يعد مقصراً فى أى من مجالاته مجاراة لغيره من الشعراء .

أما مسلم بن الوليد فلا يقل اصطناعاً للحب عن الحسين الخليع ، والذى أراه أن الحب عند هذا النفر قد خرج عن مفهومه الحق وأصبح سبيلا إلى الشهوة ولازمة لا معنى لها يرددونها حبًّا فى القول وجرياً على سنن القدماء ليأتوا بالمعانى الرائعة والصور الجميلة . والأبيات التالية لمسلم توضح ما نذهب إليه ، قال[١] :

واكَبِدا أحرقَ الهوى كبدى ... عيلَ اصطبارى وخاننى جَلَدِى
كُسيتُ ثوب البلى لأَلبسَهُ ... فقد جفا والمليكِ عن جسدى
أعشب خدى من البُكاء وقد ... أورق غُصْنُ الهوى على كبدى
وطار نومى فالعينُ تندُبُه ... وَجْدًا عليه وعادنى سُهُدى
ما أوجع الحُبَّ للقلوب وما ... أبكى شجاهُ للأَعيُنِ الجُمُد
يا أعدل الناس فى حُكومتها ... جُرْتِ علينا فى الحب فاقتصدى
أَسْخَنْتِ عَيْنِى إن كان هَجْرُكِ لا ... يَنْفَكُّ فى القرب منك والبُعُد[٢]
إنى على هجركم لمنتظرٌ ... رجائىَ الوَصْل آخر الأَبد

ومن الباحثين المحدثين من لاحظ تناقض مسلم فى غزله بأشكاله التى عرفناها مع حقائق حياته فوجد أنه لا ينسجم جميعه معها ولا مع نَفْس صاحبه ، وقد عزا هذا إلى تقليد الشاعر لغيره فى معان تتصل بفنه ولا تتصل بحياته . وأخذ عليه إسرافه فى التقليد فى غزله والتنويع فيه حتى تلاقت فيه معظم المدارس التى سبقته وعاصرته[٣] . إن هذا الرأى يدل على فهم الباحث لطبيعة غزل هذا النفر عامة ومسلم خاصة . وهو عندى يصدق على بشار وأبى نواس وغيرهما صدقه على مسلم نفسه . ومما يدل على إسراف مسلم فى تقليده القدماء وسيره على مناهجهم الأبيات التالية . قال[٤] :

---

(١) ديوان مسلم ٢٨٧ .
(٢) أسخن الله عينه : أى أنزل به ما يبكيه لأن دموع الحزن تكون سخنة .
(٣) مسلم بن الوليد ، لفؤاد ترزى ١٨٢ — ١٨٣ .
(٤) ديوان مسلم ٢٨٩ .

شخَصْتُ مذ يوم نادوا بالرحيل على آثارهم ثم لم أَطْرِف إلى أحد
أغضَضْتُ عن الناس عينى ما ترى حسناً فى الناس حتى تراهم آخر الأبد
تقسّم الشوق أنفاسى فقطعها حُبٌّ بنفسى فى الأحشاء والكبد
لما استبى البيْنُ من نفسى وأمرضها جاءَ الوداع بنعى الصبر والجلد
سلبتِ روحى وأسكنتِ الهوى بدنى فصار فيه مكان الروح فى الجسد

ومما يؤيد إسرافه وكذبه وتهافته فى الحب ما جاء على لسانه من مغالطات لا تصح منطقيًّا ولم يعرفها الحب فى تاريخه الطويل إذ قال[1]:

خلقت فى الحب ماجناً رسنى كذاك فى الحب يخلع الرسن

ويبدو أن الشاعر كان يدرك حقيقة نفسه لما تخيل حواراً بينه وبين شخص آخر جعل يشك فى حبه ويتهمه فى دعواه ، فقال من القصيدة السابقة :

وقائل : لست بالمحب ولو كنت محبًّا هَزَلْت مذْ زمن
فقلت : روحى مكاتم جسدى حُبى والحب فيه مختزن
شف الهوى مهجتى وعذبها فليس لى مهجة ولا بدن
أحَبَّ قلبى وما درى جسدى ولو درى لم يقم به السِمَنُ
لو وزن العاشقون حُبَّهُمُ لكان حبى بحبهمْ يزن
لا عيب أن كنت ماجناً غزلا فقبلى الأَولون | ما مجنوا[2]

ومما يؤكد ما ذهبت إليه فى حب مسلم من أنه كان من أجل الغزل والمجون ما رواه أبو الفرج من أنه علق جارية ذات حظ وشرف وكان منزلها فى مهب الشمال من منزله وفيها قال أبياتاً أولها :

أحب الريح ما هبت شمالا وأحسدها إذا هبت جنوباً

وتستمر الرواية فتقول كانت لمسلم : « جارية يرسلها إليها — أى إلى الجارية الأولى — ويبثها سره . وتعود إليه بأخبارها ورسائلها . فطال ذلك بينهما حتى أحبتها

---

(١) ديوان مسلم ١٧٦ .
(٢) ما مجنوا : أى قد ، أو كم مجنوا .

الجارية التى عاقها مسلم ومالت إليها وكلتاهما فى نهاية الحسن والكمال ، وكان مسلم يحب جاريته هذه محبة شديدة ، ولم يكن يهوى تلك إنما كان يريد الغزل والمجون والمراسلة ، وأن يشيع له حديث بهواها. وكان يرى ذلك من الملاحة والظرف والأدب ؛ فلما رأى مودة تلك لجاريته هجر جاريته مظهراً لذلك ، وقطعها عن الذهاب إلى تلك»[١] .

أما بشار بن برد فإن القرن الثانى لم يشهد مثله شاعراً فى كثرة أسماء من تغزل فيهن من مثل عبدة ، خشابة ، سعدى المالكية ، هند ، خاتم الملك ، رحمة الله ، سلمى ، صفراء ، أسماء ، سعدى ، والرباب ، وغيرهن . وإذا ما تجاوزنا غزله الحسى بضربيه السابقين إلى هذا الغزل الذى تبدو فيه حرارة المحبين ، وغرام العشاق لانتردد فى أن نزعم منذ البداية أن بشاراً فى حبه وغزله هذا بعيد عن الصدق ، لايعبر عن مكنون نفسه وما فطرت عليه . وسنحاول إثبات هذا الزعم بأدلة من شعر الرجل نفسه. فأول ما يلاحظ عليه أنه كان يضرب على الوتر نفسه فى ادعاء الحب وشدة الصبابة لكل واحدة تغزل فيها بحيث يقول فيها ما قال فى غيرها ، يتضح هذا جلياً فى الأمثلة التالية ، قال فى سلمى وهى جارية كان يتعشقها وكانت تسكن بجواره ، لما وهبها سيدها لرجل من أهل الشام[٢] :

أراقب النفس فى الحياة وقد ... أيقنتُ أنى بتركها عَطِبُ
والله مالى منها إذا ذكرتْ ... إلا استنانُ الدموع والطرب[٣]
زادت على الناس فى الجفاء وقد ... تعلم أنى بحبها نشِب[٤]

فإذا ما تركنا سلمى إلى سعدى المالكية وجدناه يقول[٥] :

لو يطير الفتى لطرت من الشو ... ق مُنيباً إلى الحبيب المنيب
لو ألاقى من يحمل الشوق عنى ... رُحْتُ بين الصَّبا وبَيْنَ الجنوب[٦]

---

(١) انظر : ترجمة مسلم الملحقة بديوانه (بتحقيق سامى الدهان) ٣٦٥ .
(٢) ديوان بشار / ١٩٠١ .
(٣) استنان الدموع : صبها .
(٤) نشب : متعلق .
(٥) ديوان بشار ١ / ١٩٨ .
(٦) المنيب : المقبل ، الراجع .

أما خشابة وهى امرأة فارسية كانت تغشى مجلسه بالبصرة فيقول فيها[١] :

أخشاب قد طال انتظارى فأنعمى ... على رجل يدعو الأطباء مُتعبا
أُصيب بشوق فاستخفت حصاته ... ولا يعرف التغميض إلا تقلُّبا[٢]

ويقول فى عبدة[٣] :

ما زلت أذكركم وَلَيْلكُمُ ... حتى جفا عنى مضجعى جنبى
وعلمت أن الصُرْم شيمتكم ... فى النأى والهجران فى القرب

ويقول فى هند[٤] :

كيف لا يأوى لشخصٍ ... هائم القلب مُصابِ
دنفٍ فى حب هند ... ذى شكاة وانتحاب
دخـــل الحب لهند ... قلبـــه من كل باب

ويقول فى خاتم الملك[٥] :

برانى حبك المكنو ... ن فى الأحشاء إذ صُنتهْ
وما ذِكْرِكِ إلا السِّحْ (م) ر أو كالسحر علقته
وأنت الحجر الأسو ... د لو يخلو لقبلته

وهناك أمثلة أخرى غير هذه فى سلمى وحبىّ وصفراء وخليدة ورحمة الله جرى فيها بشار على النمط نفسه[٦] . ولو حاولنا أن نجبر أنفسنا على تصديق بشار فهل

---

(١) ديوان بشار ١ / ٢١١ .
(٢) الحصاة : العقل .
(٣) ديوان بشار ١ / ٢١٣ .
(٤) المصدر نفسه ١ / ٢٧٢ .
(٥) المصدر نفسه ٢ / ١٥ .
(٦) انظر على سبيل المثال : ديوان بشار ٢ / ٣٣ ، ١٨٥ ، ٢٠١ ، ٣١١ و ٣ / ٢٠ ، ١٦٢ وغيرها .

نستطيع أن نختار واحدة من هؤلاء ونقول إنها هى التى أصابت شغاف قلبه وحدها فتملكه حبها ؟ ! ليس فى استطاعتنا هذا ، لأن النغمة واحدة وآلتها واحدة وليس بمستطاع معرفة المراد لأنه غير موجود أصلا .

أما الملاحظة الثانية فما يردده بشار من أن كل واحدة من صاحباته جعلته يقلع عن غيرها من النساء حفاظاً عليها واحتراماً لحبها ، وهذه مغالطة كبيرة تؤكدها النماذج السابقة والأمثلة التالية أيضاً . قال فى عبدة[١] :

أما النساء فإنى لا أعيج بها ... قد صُمْتُ عنها بنَحْب منك منحوب[٢]

أنت التى تشتفى عينى برؤيتها ... وهُن عندى كماء غير مشروب

وقال فيها أيضاً[٣] :

أرسلت خُلتى من الدمع غرْبا ... ثم قالت : صبوتَ ، بل كنت صبّا

قلت : كلا لا بل صفا لك حتى ... زادك الله يا عبيدة حُبا

ما تعرضت للكوانس فى الستر ... ولا العارضات سِرْباً فسربا

أنت كدّرت سِرْبَهُن فأصبح (م) ن غضاباً علىّ يَذْمُمْنَ شُرْبَا

فلهن الطلاق منى . ومنى ... لك طول الصفاء والود عذبا

فلو كان ما قاله فى عبدة صادقاً لما وجدناه يقول فى خليدة[٤] .

أى شىء أجلُّ من أن قلبى ... ليس يصحو ولا أراها تجود

قيّدتنى عن كل أنثى تصدى ... بهواها ، و من هواها قيود

وأما الدليل الثالث على ما نذهب إليه فهو أن اللذة الحسية ، والشعور الشهوانى وما يتعلق بهما ، كل أولئك يلاحقه فى غزله هذا ، ولذلك كان المرحوم العقاد على حق عندما قال إن حب بشار كان حبّاً (للنساء) لاحبّاً (للمرأة) ... أو هو كان حبّاً للأنثى

---

(١) ديوان بشار ١ / ١٩٦ .

(٢) أعيج : أنتفع وربما أعبا . النحب : الحاجة . المنحوب : المحصل .

(٣) ديوان بشار ١ / ٣٨٠ ثم انظر أيضاً ٢ / ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(٤) ديوان بشار ٣ / ٢٠ .

التى يراها واحدة فى كل امرأة على اختلاف الصفات وتعدد الأسماء. . . . . »[١].
ولذلك قال فيه: « ولاينتظر القارئ أن يسمع من غزل بشار تلك النغمة الساحرة التى ترتفع بالنفس إلى عالم الأحلام والأشواق . . . ولا يرجو أن يطالع منه وصفاً للحب كأوصاف أولئك الشعراء الكماليين .... فكل أولئك غريب عن طبعه . بعيد عن مشربه ..... وإنما كان غزله وصفاً للذات الحس التى يباشرها أو يشتاق إليها..» [٢].
ومن الأمثلة على الدليل الثالث ما قاله بشار فى عبدة[٣] :

يا عبد حتّام لا ألقاك خاليةً ... ولا أنام ؟ لقد طولت تعذيبى!
أهديت لى الطيب فى ريحان ساحرة ... يا عبد ريقك أشهى لى من الطيب
أهدى لنا شَرْبة منه نعيش بها ... إن كنت مُهدية روْحاً لمكروب

ومن أحسن الأدلة التى تدعم ما نذهب إليه فى دليلنا الثالث قصيدة لبشار فى سلمى تحدث عن فيها طبيعة حبه للنساء مبيناً أن حبه كان حبًّا جسديًّا ليس غير ، قال[٤] :

أُحِبُّ ثَّفاها وعينيها وما عَهِدَتْ ... إلى من عجبٍ ، ويلى من العجب !
داء المحب ، ولو يُشفى بريقتها ... كانت لأدوائه كالنار للحطب
قد قلت لما ثَنَتْ عنى ببهجتها ... واعتادنى الشوق بالوسواس والوصَب :
يا أطيب الناس أردافاً ومُلْتزماً ... مُنِّ علىَّ بيومٍ منك واحتسبى
إن المحبّين لا يَشْفى سقامَهُما ... إلا التلاقى ، فداوى القلب واقتربى

وفى هذه القصيدة بالذات يظهر كذب بشار فى غزله وعلاقاته مع النساء ، ولكنه لخبثه لم يستطع أن يفصح به على لسانه هو ، فمال إلى سلمى نفسها ليقول على لسانها :

---

(١) مراجعات فى الآداب والفنون ١٣٥ .
(٢) المرجع السابق نفسه ١٣٤ .
(٣) ديوان بشار ١ / ١٩٦ .
(٤) المصدر السابق ١ / ٢٦٤ .

قالت : أكلُّ فتاة أنت خادعها بشعركَ الساحر الخلاَّب للعُرُب
كم قد نَشِبْتَ بغيرى ثم زِغْتَ بها فاستحى من كذب، لا خير فى الكذب

ثمة أمثلة كثيرة من هذا النوع فى ديوان بشار ليس من السهل الاستشهاد بها جميعًا[١] بالإضافة إلى ماتقدم فلانكاد نجد فى غزل بشار تذلل المحبين وخضوعهم لمحبوباتهم كما هى العادة . وإنما كان حبه مشروطاً «بالتنويل» وبأخذ « المقابل» من صواحبه ، ولهذا وجدناه يخاطب قلبه ويلومه على حبه (لحبى) لأنه لم ينل منها شيئا ، قال[٢] :

عَدِمْتُك عاجلاً يا قلبُ قلباً أتجعل من هَوِيتَ عليك ربًا ؟
بأَى مشورةٍ وبأَى رأْىٍ تملِّكها ولا تسقيك عذبا؟!
وَتهْتَجِرُ النساءَ إلى هواها كأَنك ضامِنٌ منهن نَحْبا[٣]

فليس بغريب بعد كل ما تقدم أن يذهب النقاد والدارسون إلى وصم بشار بالحسية المتناهية فى غزله كالذى ذهب إليه العقاد . أما المازنى فيرى أن المرأة لم تكن عند بشار سوى أنثى يصبو جسد الرجل إلى جسدها وأداة يرضى بها غريزته[٤] ، وأنثى تُشتهى وتنال[٥] . وإن الشاعر لم يكن يعنى بالصدق فى الإعراب عن عاطفته عنايته بسيرورة شعره وشهرته[٦] . أما الدكتور محمد مهدى البصير فذهب إلى أن غزل بشار لا يحتوى على عواطف غرامية صادقة ،إنما يحتوى خواطر لطيفة وأخيلة طريفة مرجعها أن الشاعر رجل شهوة وصاحب لذة لايهمه من المرأة إلاجسمها[٧] . أما الطاهر بن عاشور فيذهب إلى أن حب بشار هذا ما كان إلا ترويضاً لنفسه إيفاء لها بشعائر المجون، وتوسلا إلى إجادة النسيب الذى هو سدى الشعر ولُحْمته[٨] .

أما عن حب بشار للجارية عبدة التى كانت تتردد على مجلسه (البَرَدان) مع غيرها

---

(١) انظر على سبيل المثال : ديوان بشار ١ / ٢٦٧ و ٢ / ٣٤ و ١٦٢ وغيرها .
(٢) ديوان بشار ١ / ١٦٥ .
(٣) النحب : الموت .
(٤) بشار بن برد – للمازنى ٧٢ .
(٥) المرجع السابق ٧٣ .
(٦) المرجع السابق ٩٤ ، ٩٦ .
(٧) فى الأدب العباسى ١٤١ .
(٨) ديوان بشار (مقدمة ابن عاشور) ١ / ٣١ .

من النساء[١]، فعشقها بعد أن سمع كلامها؛ فكانت السبب المباشر فى نقل العشق من دائرة الرؤية إلى دائرة السماع، فلم يكن نصيبها بأحسن من غيرها ممن عشق الرجل، وفيما قدمنا من أدلة إثبات لما نذهب إليه، وقد سبق إلى هذا الرأى فى عبدة خاصة أحد الدارسين المحدثين، قال أحمد حسنين القرنى: «ولكنه لم يكن صادقاً فى حبها ولم يكن وقفاً عليها، بل كان ينتقل به حيث يوحى إليه سمعه أو لمسه: فأنى سمع ما يدل على جمال افتتن، وحيث لمس ما يشعر بالجمال أخذ ... ولو أنه كان صادقاً فى هوى عبدة ما أشرك معها غيرها، فمن أحب لا يبغض ولا يشرك... «إذن فمن البديهى ألا يكون صادقاً فى حب عبدة، ولكنه شبب بها لأنه مال إليها واستعصت عليه»[٢].

يدعم هذا ويقويه أبيات لبشار يدعو فيها نفسه إلى الابتعاد عن عبدة وذكر عبدة، والتعزى عنها بغيرها لالشىء غير أنها لم تنله ما كان يرجو، ولم تحقق له ما كان يطلب بما كان يظهر لها من حب وصبابة، قال[٣]:

دع ذكر عبدة إنه فند ... وتعزَّ ترْفِدُ منك ما رفدوا[٤]

ما نولتك بما تطالبهـا ... إلا مواعدَ كلها فَنَدُ

فاسكن إلى سكنٍ تسرّ به ... ذهب الزمان وأنت منفرد

وأما أبو نواس فلايكاد يختلف فى هذا المضمار عن بشار، إذ تغزل بكثيرات كما تغزل بشار من مثل: دنانير، سمجه، عنان، عريب، قصريه، رحمة، قاتل، وحُسن، وغيرهن. ولأبى نواس فى بعضهن غزل فيه حرقة وفيه شكوى وألم، وكما شاع واشتهر حب بشار لعبدة، شاع واشتهر غرام أبى نواس بالجارية جنان، وأبو نواس فى غزله هذا لايختلف عما قلناه فى غزل بشار: فلقد كان هو الآخر مخادعاً كذاباً وحسبه ما قال عن نفسه من أنه كان يهوى بغير حساب[٥]:

---

(١) الأغانى ٦ / ٢٤٢.

(٢) بشار بن برد – للقرنى (مطبعة الشباب – القاهرة ١٩٢٥) ٢٣ – ٢٤.

(٣) ديوان بشار ٣ / ٦٢.

(٤) فند: كذب. ويرى الطاهر بن عاشور أن المعنى يستقيم إذا جعل عجز البيت هكذا (وتعز – ترقد مثلما رقدوا) أى لو تعزيت عن حبها لزال عنك السهاد ورقدت كما رقد الأخلياء. (انظر: ديوان بشار ٣ / ٢٠ – الهامش –).

(٥) ديوان أبى نواس (آصاف) ٣٦٣.

أبعد الله يا سليمان قلبي هو أيضاً يهوى بغير حساب

إن غزل أبي نواس وحبه للمرأة لا يمكن أن يكون صادقاً صدقه في الغلمان والغلاميات . وقد انتبه الدارسون المحدثون إلى هذه الناحية، فقال الدكتور طه حسين : « إن أبا نواس لم يكن جاداً ولا صادقاً حين كان يتغزل بالنساء، وإنما كان مازحاً، أو بعبارة أصح كان مخادعاً ، وكان كذاباً ، وكان مغروراً وكان مفتوناً ، وكان مع هذا كله شاعراً يريد أن يطرق أبواب الشعر جميعها ومنها التغزل بالنساء ، فتغزل بهن حتى لا يفوته هذا الفن[١] .. » . ثم يقول : « ومن هنا لم يكن أبو نواس صادقاً ومتحدثاً عن عاطفة قوية متقدة في أكثر الأحيان، حينما كان يذكر هؤلاء النساء أو يتغزل بهن ، وإنما يترضاهن ترضياً ، ويتملقهن تملقاً ، ويتخذهن وسيلة إلى إرضاء مجونه من جهة ، وفنه من جهة أخرى ... ولا تكاد تقرأ قصيدة أو مقطوعة من شعر أبي نواس في هذا الفن من الغزل إلا رأيت فيها التكلف ظاهراً ، والكذب واضحاً ، لا أريد التكلف اللفظي ، وإنما أريد تكلف المعنى وانتحال الحب... »[٢] . وأما عبد الرحمن صدقي ؛ فيجزم أن أبا نواس لم يعرف الحب إلا مع جنان، وأما مع غيرها فلم يكن حبه إلا صبوة عابرة لكل من عليه سمة للحسن ظاهرة، لأنه كان يستجيب لأنماط الجمال مدفوعاً بحبه للمجون لا بدافع الشهوة[٣] . أما الدكتور مهدي البصير فيرى أنه من الغفلة أن يعد أبو نواس مخلصاً في حبه لطائفة القيان اللائي تغزل فيهن لأن الصدق لم يكن يتمثل فيه أو فيهن[٤] . وإلى مثل هذه الآراء ذهب الدكتور محمد النويهي[٥] . ومما يؤيد الآراء السابقة جميعها ما قلناه في فصل الغزل في المذكر من أن نفس أبي نواس فطرت على حب الغلمان وتفضيلهم على النساء ، حتى إن الناس في عصره كانوا يستغربون إذا ما سمعوا بميله إلى النساء[٦] ، وإذا ما اعترض على هذا بحبه للغلاميات — وهن من النساء —

---

(١) حديث الأربعاء (طبعة دار المعارف) ٢ / ١٠٣ .
(٢) المرجع السابق ٢ / ١٠٧ .
(٣) ألحان الحان ٣١٢ — ٣١٣ .
(٤) في الأدب العباسي ١٧٧ .
(٥) نفسية أبي نواس ٦٧ — ٧٢ .
(٦) انظر : ص ٢١٤ من هذا الكتاب .

فلا نتردد فى أن نقول : إن حبه لهن وولعه فيهن كان ذا صلة بحبه للغلمان ؛ لأنه كان يجد عندهن ما كان يطلبه فى الغلمان ، وقد استشهدنا على هذا بأبيات من شعره[١].

كان أبو نواس كبشار فى صلته بالنساء ينسج على المنوال نفسه ، يقول للواحدة ما يقوله للأخرى ، وأنى كان هذا دليلا على حب صادق أو مشاعر مخلصة ؟ ! ومع معرفته الدقيقة بعنان وسلوكها والتى كانت مشاعاً ونهباً لمجان تلك الفترة من الشعراء ، تجالسهم وتجتمع بهم وتدعوهم إلى التعهر والفجور صراحة وبلا مواربة أو تستر ، فإنه يحاول أن يخدع ويوهم ويذرف الدموع الغزار من أجلها فيقول[٢] :

رب ليلٍ قطعته بانتحاب ... رب دمع هرقته فى التراب
رب ثوب نزعته بعصير الد ... مع ، بدَّلت غيره من ثيابى
لم يجفَّ المنزوع عنى حتى ... بلّت العين ذا لطول انتحابى

ولكنه لايلبث أن يقول فى مكنون[٣] :

مكنون سيدتى جودى لمحزون ... متيم بأليف الحب مقرون
قالت : جُننت على رأيى ، فقلت لها : ... الحب أعظم مما بالمجانين
الحب ليس يفيق الدهر صاحبه ... وإنما يصرع المجنون فى الحين

فهل كان حب أبى نواس من هذا النوع الذى تحدث عنه ؟ إن حبه وحب أضرابه فى هذا القرن لم يكن إلا تسلية ومسامير حب — كما قال الوشاء — ليس غير ، أما تلك النغمات المصطنعة التى كان يرددها أبو نواس إيهاماً وتضليلا فليست من الحقيقة فى شىء ، قال يخاطب عبدة[٤] :

يا عبد أصبحت فاعلميه ... أقدر حِبٍّ على وفائى
إنْ قلتِ : مُتْ ، مت فى مكانى ... أو قلت : عِشْ عشت فى مماتى

---

(١) انظر : ص ١٢٩ - ١٣٠ من هذا الكتاب .
(٢) ديوان أبى نواس (آصاف) ٣٦٣ .
(٣) المصدر السابق نفسه ٣٩٩ .
(٤) المصدر السابق نفسه ٣٦٨ .

عاقبتنى ظـالماً بذنب قَسُرَّ مَنْ سُرّ من عِداتى

لقد كان أبو نواس بارعاً فى التمثيل ، وذا مقدرة عجيبة فى نسج الأضاليل التى قد تفوت على كثيرين من الناس إذا ما سمعوه يشكو العذال والرقباء ويجأر من هول الهوى الذى شيبه قبل الأوان ، يقول[١] :

نال منى الهوى منالاً عجيباً وتشكيت عاذلى والرقيبـا
شِبْت طفلاً ولم يحن لى مشيب غير أن الهوى رأى أن أشيبا

وليس أدل على ما تقدم من قوله فى دنانير[٢] :

صَلِيتُ من حبها نارين : واحدة بين الضلوع وأخرى بين أحشائى
وقد حَمَيْتُ لسانى أن أُبين به فمـا يُعبر عنى غير إيمائى
يا ويح أهلى أبلى بين أعينهم على الفراش وما يدرون مادائى

ومن الأدلة على عدم صدق أبى نواس فى تعشق النساء ما عرف عنه أنه كان يتعشق رسل صاحباته ويجمشهن ، قيل إنه كان يتعشق جارية من جوارى آل المهلب ، فأرسلت يوماً إليه بوصيفة لها فجمشها ، فردت ذلك على مولاتها ، فكتبت إليه :

ليس الفتى الحر الكريم مجمّشا لرسول حِبَّة قلبه المرتاح
ذاك الخلى من الهوى وشروطه وحليف كل خلاعة ومُزاح[٣]

وكما جرب حظه مع وصيفة الجارية السابقة جرب حظه مع رسول (جنان) نفسها واعترف هو نفسه بهذا فقال[٤] :

أرسل من أهوى رسـولاً له إلىّ والمنسوب محبوب
فقلت : أهلا بك من مرسل ومن حبيب زانه الطيب
جمشته فى كلمة فانثنى وقال : هذا منك تجريب

---

(١) المصدر السابق نفسه ٣٦٥ .
(٢) المصدر السابق نفسه ٣٦٠ .
(٣) ديوان أبى نواس (فاجر) ١ / ٨٨ .
(٤) ديوان أبى نواس (آصاف) ٣٦٣ .

وجاءت الرسل بأن آتنا فجئتهـا والقلب مرعوب
قالت : تعشقت رسولى لقد بدت لنا منك الأعاجيب
ذاك وهذا لك يا غادرًا فى دفتر الحاصل مكتوب
من يأمن الذئب على معْزة أهْلٌ لأن يخفره الذيب

وبعد كل هذا يأتى أبو نواس لبث ألمه وشكواه فى حب جنان فيقول[١]:

أيا مُلين الحديد لعبـــده داود
ألن فؤاد جنان لعـــاشق معمود
قد صارت النفس منه بين الحشا والوريد
جنان جودى وإن عز ك الهوى أن تجودى
فاقتليني ففى ذا ك راحة للعميد
أما رَحِمْتِ اشتياق أما رحمت سهودى
فشـــارفى لمحب محض الوداد وجودى
صبٍ مريض مهيض ناء ، طريد ، شريد

أما جنان تلك فكانت جارية آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى المُحدِّث ، وكانت حلوة جميلة المنظر ، ظريفة عاقلة ، أديبة ، تعرف الأخبار وتروى الأشعار . رآها أبو نواس بالبصرة فاستحلاها وقال فيها شعراً ، ويقال إنه ماحجّ إلا من أجلها[٢] . اختلفت الآراء قديماً وحديثاً فى حب أبى نواس لها ، ففى الأغانى أنه لم يصدق فى حبه امرأة غيرها[٣]. ثم إنه كان صادقاً فى محبتها من بين من كان ينسب به من النساء[٤] . وفى الأغانى نفسه الرواية التالية التى تكشف عن مذهب النواسى فى النساء وعن حبه

(١) المصدر السابق ٣٧٢ .
(٢) الأغانى (ساسى) ١٨ / ٢ .
(٣) الأغانى (ساسى) ١٨ / ٢ أيضاً .
(٤) المصدر السابق ١٨ / ٤ .

وتعشقه لجنان خاصة، ننقلها بسندها : « ... فأخبرنى ابن عمار قال : حدثنى محمد ابن القاسم بن مهروية قال : حدثنى محمد بن عبد الملك بن مروان الكاتب قال : كنت جالساً بسر من رأى فى شارع أبى أحمد فأنشدنى قول أبى نواس :

اسأل المقبلين من حكمان كيف خلَّفتما أبا عثمان

وإلى جانبى شيخ جالس فضحك. فقلت له : لقد ضحكت من أمر ، فقال : أجل أنا أبو عثمان الذى قال أبو نواس فيه هذا الشعر ، وأبو أمية ابن عمى وجنان جارية أخى ولم تكن فى موضع عشق ، ولا كان مذهب أبى نواس النساء ولكنه عبث خرج منه »[١].

أما المحدثون فاختلفت آراؤهم كما تضاربت آراء القدامى فيما تقدم، فعبد الرحمن صدقى ذهب إلى أنه لم يعرف الحب إلامعها، ومال إلى مثل هذا الدكتور طه حسين فقال : «وربما كان من الحق أن نستثنى من هذا الشعر شعره فى جنان ، فقد يظهر أنه كلف بها حقًّا . وهام بها بعض الهيام ... ولكنه مع ذلك لم يكن مقتصداً ولا عفيفاً فى كل ما قال» ؛ ثم يعود فيقول : « وأنا أحسب أن حب أبى نواس لجنان لم يكن من الحب الصادق العفيف وإنما كان نوعاً من الأمل يتحرق الرجل لتحقيقه ويعسر عليه هذا التحقيق »[٢] .

أما الدكتور مهدى البصير فيجزم بعدم حب أبى نواس لجنان ويرى أنه أحبها حب من يريد أن يقضى وطراً ؛ فلما عز عليه بلوغه شكا وتألم ملحًّا فى شكواه ، مسرفاً فى تألمه حتى يخيل لمن يقرؤه أو يسمعه أنه محب متيم وما هو من الحب الحقيقى فى شىء[٣]. أما الدكتور النويهى فيرى أن أبا نواس مال إليها لأنه أمل خلاصه من محنته على يديها ، فلما استجابت له بعد طول تمنع واشترطت عليه أن يتوب عن اللواط فرفض ، خابت أمانيه وارتد إلى غيه وديدنه[٤] . يستشف من هذا أن حبه لها كان وسيلة لا غاية بدليل موته بعد فشل الوسيلة مباشرة . وعندى أن أبا نواس لم يعرف الحب لا مع جنان ولا مع غيرها ممن ذكر، بدليل ماتقدم شرحه،

(١) الأغانى (سامى) ١٨ / ٥ .
(٢) حديث الأربعاء ٢ / ١٠٧ – ١٠٨.
(٣) فى الأدب العباسى ١٧٧ .
(٤) نفسية أبى نواس ٩٨ – ١٠١ .

وأن غزله هذا لا يعدو أن يكون إرضاء لفنه لا لنفسه كما قال الدكتور طه حسين .

يمكن أن نسلك الشاعر ربيعة الرقى فى عداد هؤلاء الشعراء . كان ربيعة من المكثرين المجيدين ، ولكن السبب فى إهمال ذكره وسقوطه عن طبقته بُعْدُه عن العراق وتركه خدمة الخلفاء ومخالطة الشعراء كما يقول أبو الفرج[١]. لربيعة أشعار فى الغزل غاية فى الرقة والعذوبة ، أعجب به ابن المعتز إعجاباً كبيراً وأثبت كثيراً من غزله فى طبقاته وعلق على بعضه تعليقات تنم عن نوع إعجابه، حتى قال فى مستهل ترجمته: «فأما شعره فى الغزل فإنه يفضل على أشعار هؤلاء من أهل زمانه جميعاً ، وعلى كثير ممن قبله . وما أجد أطبع ولا أصح غزلا من ربيعة »[٢] ثم فضل غزله على غزل أبى نواس فقال : « كان ربيعة أشعر غزلاً من أبى نواس لأن فى غزل أبى نواس برداً كثيراً ، وغزل هذا سليم سهل عذب »[٣] وربما كانت هذه السلامة والسهولة والعذوبة السبب فى شيوع غزله وانتشاره بدليل ما يرويه أبو الفرج عن على ابن الحسين بن عبد الأعلى أنه رأى لربيعة على بساط قديم من بسط السلطان بسر من رأى الأبيات التالية :

وتزعم أنى قد تبدلتُ خلَّةً سواها وهذا الباطل المتقوَّلُ
لحا الله من باع الصديق بغيره فقالت: نعم حاشاك إن كنت تفعل
ستصرم إنساناً إذا ما صرمتنى بحبك ، فانظر بعده من تَبَدّل[٤]

وإن كان ابن المعتز يذكر أن شعره كان معروفاً عند الخواص ولم يكن أيدى العوام[٥] . وقد افتخر الشاعر نفسه بشعره الغزلى فقال[٦] :

سائلى عن شعراء الند اس هل غاصوا مغاصى
قلت شعرًا ينزل الأَع صم من رأس الصياصى

---

(١) الأغانى ١٦/٢٥٤ .
(٢) طبقات ابن المعتز ١٥٩ .
(٣) الأغانى ١٦ / ٢٥٥ .
(٤) المصدر السابق نفسه ١٦ / ٢٦٠ .
(٥) طبقات ابن المعتز ١٦٥ .
(٦) المصدر السابق ١٦٠ .

والغـــوانى مُغْوياتٌ مولعـــات باقتناصى
قد تواصين بحبى حبذا ذاك التواصى

ولهذا لايستغرب أن تشبّى جوارى المهدى سماع شعر ربيعة فيوجه إليه المهدى من يحمله من الرقة على البريد ، فينشدهن ويجاز جائزة سنية[١] .

إن غزل ربيعة محير للباحث لما فيه من تضارب وتناقض ، ولكنه بالرغم من ذلك لانرى مارآه الدكتور شوقى ضيف حين سلكه فى الغزل الصريح[٢] معتمداً على ماجاء فى الأغانى من أنه كان يلقب بالغاوى[٣] . أول مايطالع فى غزل ربيعة تعلقه بأكثر من جارية ، ففى غزله ذكر لرخاص، وداح ، وغنمة ، وليلى ، وسعاد ، وعثمة ، وهى الوحيدة التى ذكرها أبو الفرج فقال: « وكان يهوى جارية يقال لها عثمة أمة لرجل من أهل قرقيسياء ، يقال له ابن مرّار ، وكان بنو هاشم فى سلطانهم قد ولوه مصر »[٤]. وفى رواية أخرى أنها كانت لرجل من أهل الكوفة[٥] وبهذا يشترك الشاعر مع من سبقوه فى تعدد الهوى وكثرة المعشوقات مما يحمل على أن يقال فيه ماقيل فى بشار وفى أبى نواس وغيرهما من أن من كان هذا ديدنه لايمكن أن يصدق فى عشق أو يثبت على حب. واعترف الشاعر نفسه بهذا على لسان صاحبته سعدى لما قال[٦] :

قالت : فؤادك بين البيض مقتسم ما حاجتى فى فؤاد منك مُقْتَسم
أنت الملول الذى استبدلت بى بدلا قصرت بى وشريت اللؤم بالكرم

وإذا ما جاوزنا تقسم فؤاده بين البيض إلى شىء آخر وجدناه يشترك مع غيره من شعراء هذا القرن فى ترديد النغمات نفسها لكل واحدة من صواحبه، فبينما نجده يشكو اللوعة والألم والعذاب فى حب رخاص[٧] ، نجده يتألم ويتعذب ويئن من حب

(١) الأغانى ١٦ / ٢٥٥ .
(٢) العصر العباسى الأول / ٣٨٠ .
(٣) الأغانى ١٦ / ٢٥٤ .
(٤) المصدر السابق ١٦ / ٢٦٢ .
(٥) المصدر السابق ١٦ / ٢٦٤ .
(٦) طبقات ابن المعتز ١٦٧ .
(٧) المصدر السابق نفسه ١٦٠ .

(داح) التى قتلته من غير سلاح كما يقول[١] . أما (عثمة) فيخاطبها قائلا[٢] :

أعثمة أطلق العَلق الرهينا بعيشك وارحمى الصبّ الحزينا
ربيعــة مغرم بك مستهام يَحِنُّ إليك من شوق حنينا

أما (غنمة) أو (غنّام) كما كان يسميها فنجده يلتمس المقدمات إلى حبها بذكر العشاق والمحبين الأوائل من مثل عروة وجميل وكثيّر؛ ليدعى أنه إنما يسير على سنهم وطرائقهم فى الحب[٣] ، ولكن أنى له ذلك ومذهبه يختلف عن مذاهبهم ونوع حبه يختلف عن حبهم ؛ ولسنا نراه إلا محتذيًا آثارهم سالكًا مسالكهم مقلداً لطرائقهم ومقتفيًا أثارهم حبًّا فى التقليد والاقتفاء وليس عن أصالة فى حب أو عشق . ومما يدل على منهجه التقليدى قصيدة له فى (ليلى) دعا فيها صاحبيه إلى الوقوف على أطلال ربعها يشاركانه البكاء والتجلد على عادة الجاهليين فيقول[٤]:

خليلىّ هذا ربع ليلى فقيّدا بعيريكما ثم ابكيا وتجلدا
قفا أسعدانى بارك الله فيكما وإن أنتما لم تفعلا ذاك فاقعدا
وإلا فسيرا واتركانى وعَوْلتى أقلْ لجنابى دِمْنة الدار أبْعِدا
فقالا ـ وقد طال الثوى عليهما ـ : لعلك أن تنسى وأن تتجلدا

أما عن مذهبه فى الحب فلا يختلف عن مذهبه الحسيين حيث يقول[٥] :

الحب داء عياء لا دواء له إلا نسيم حبيب طيب النسم
أو قبلة من فم نيلت مخالسة وما حرام فم ألصقته بفم
هذا حرام لمن قد عده لَمَماً ولن يعذبنا الرحمن باللمم[٦]

---

(١) المصدر السابق نفسه ١٦٢ .
(٢) المصدر السابق نفسه ١٦٢ .
(٣) المصدر السابق نفسه ١٦٤ .
(٤) المصدر السابق نفسه ١٦٩ .
(٥) المصدر السابق نفسه ١٦٧ .
(٦) اللمم : مقاربة الذنب من غير أن يقع ، صغار الذنوب .

ولهذا لانعدم أن نجد إشارات صريحة فى غزله وإن كانت على سبيل التمنى والرجاء ، قال فى (غنم)[١] :

وأنت طيبة فى القيظ باردة ... وفى الشتاء سَخونٌ ليلة الصَّرَدِ
تسقى الضجيع رضاباً من مقبلها ... من بارد واضح الأنياب كالبَرَد
يا ليتنى قبل موتى قد خلوت بها ... على الحشية بين السَّجْف والنَّضَدِ[٢]
قد وسدتنى اليد اليمنى ويارقها ... ودُمْلج العَضُد اليسرى على عضدى

غير أنه على الرغم من هذا يذكر فى شعره أنه كان بعيداً عن الزنا وارتكاب الفواحش والمحرمات مع النساء على ما صرح به من لهو ، فقال[٣] :

أيها الناس ذرونى ... لست من أهل الفلاحِ
أنا إنسان معنَّى ... بهوى المُرْضِ الصحاح
أنا زير للغوانى ... وأخو لهو وراح
غير أنى لست أغشى ... أبدًا باب السفاح[٤]

ولكنه يعود فيناقض نفسه فى القصيدة نفسها عندما يذكر خلوته بفتاة إلى الصباح فيقول :

فخلونا بفتـــاة ... غادة غرّثى الوشاحِ
فلبست العُكنَ البيض ... من الخوْد الرداح
ثم لمَّا صاح ديك ... قبل إبان الصباح
قلت : صح ياديك ألفاً ... ليس ذا وقت البراح
أو أرى الصبح وإن كا ... ن لفى الصبح افتضاحى

---

(١) طبقات ابن المعتز ١٧٠ .
(٢) السجف : الستران بينهما فرجة . النضد : من معانيه السرير .
(٣) طبقات ابن المعتز ١٦٢ .
(٤) السفاح : الزنا ، تزوج المرأة سفاحاً أى بغير سنة ولا كتاب .

غير أنه فى قصيدة له فى (سعاد) يذكر أنه زارها ولكنه لم يرتكب معها أى إثم أو يستحل حراماً ، قال[١] :

فزرتها واقعاً طرفى على قدمى وقد تلبست جلبابين من ظُلَم
فكان ما كان لم يعلم به أحد وما جَرحْتُ وما عُلّلْت بالحَرم[٢]

وهكذا كان ربيعة الرقى يلهج بالغزل لهجاً ويتردد فيه بين التقليد والتجديد فما كان ثابتاً فى حبه ولا فى مذهبه فى الغزل، ولهذا رأينا أن نسلكه مع هذه الطائفة على أن نسلكه فى عداد شعراء الغزل ، الصريح كما فعل الدكتور شوقى ضيف .

ملابس المرأة وتزينها من خلال الغزل :

لكل امرأة فى أى عصر من العصور ملامح تميزها فى الملابس وأدوات الزينة من حلى وعطور وغيرها ، وشعراء الغزل أولى الناس فى الكشف عن هذه الجوانب من حياتها فى كل العصور ، ففى العصر الجاهلى تحدثوا عن هذه النواحى ، فذكر بعضهم أنه كان فى النساء المحجبة والسافرة ، ثم ذكروا أنواع ملابسها ، وما تضعه على وجهها من خمار وقناع ، وما كانت تلبسه على جسدها من ريط ومروط ووصائل وبرد ومجاسد وأوشحة وسابريات ومُذْهبات وغيرها ، ثم عرضوا لأوان بعض هذه الثياب أيضاً ، كما تحدثوا عن الحلى التى كانت تستعملها النساء فى مواطن الفتنة والجمال ، ففى الأعناق كانت تستعمل قلائد من ذهب وياقوت ولؤلؤ ، وفى الآذان الأقراط من ذهب ولؤلؤ وغيرها ، وفى السواعد الأسورة الذهبية ، وفى الأعضاء الدمالج ، وفى الأرجل الخلاخيل والحجول . أما أنواع الطيب والعطور فكان منها المسك والعنبر والكافور والزعفران ، أما الخضاب فكانت الحناء والزعفران أيضاً . كل هاتيك الأشياء وردت فى ثنايا غزل الشعراء الجاهليين وأوصافهم للمرأة[٣] . أما الشعراء بعد الجاهلية

---

(١) طبقات ابن المعتز ١٦٧ .
(٢) جرحت : بمعنى اجترحت . عله بكذا : شغله به .
(٣) يراجع فى هذا الموضوع : الغزل فى العصر الجاهلى — للحوفى ٩٦ — ١٢٥ .

فتقدموا خطوة إلى الأمام فى هذا الميدان بما أضافوه من أشياء جديدة إلى قائمة الشعراء الجاهليين حتى قال شكرى فيصل عن عمر بن أبى ربيعة على سبيل المثال : « ولو أننا جمعنا كل الذى قاله عمر فى ذلك لكان لنا قائمة بالذى كانت تحويه دكاكين العطارين فى مكة أو المدينة »[١] . وإذا ما وصلنا إلى القرن الثانى لنتعرف على مظاهر تزين المرأة التى تغزل فيها الشعراء فى ملابسها وأدوات زينتها لما تيسر لنا ذلك إلى حد كبير إلا ماوجدناه عند أبى نواس والحسين بن الضحاك من وصف للغلامية فى شكلها وملابسها وأدوات زينتها — وهى قليلة — فيما تقدم ، ثم ما نجده عند الشاعر بشار ابن برد بحيث لانكاد نجد شاعراً عنى عنايته فى هذه الناحية ، فهو وحده يستطيع أن يعطى صورة شبه كاملة عن جارية هذا العصر فى ملابسها ومظاهر زينتها ، وأكاد أزعم أن بشاراً نفسه ربما قصد إلى هذا الصنيع قصداً — وهو الضرير — ليكوّن لنفسه أداة من أدوات التعويض الذى أشرنا إليه فيما تقدم كيما يقال إنه ذكر أشياء تتعلق بالمرأة أكثر مما ذكره المبصرون من الشعراء . وإذا ما استثنينا هذه الظاهرة التعويضية عند بشار وحاولنا أن نعلل قلتها عند غيره من الشعراء ، فمن الجائز أن يقال إن الشعراء لم يكن يهمهم من المرأة — فى أكثر الأحيان — الالتفات إلى ملابسها ووسائل زينتها بقدر ما كان يهمهم التطلع إلى جسدها بحيث ألهى نهم أكثرهم وموقفه من المرأة عن هذه الأمور فانصرف إلى جسدها يشرحه ويصف أعضاءه ، فليس بغريب أن تغيب عن بال أكثرهم والحال هذه ماتلبس المرأة وما يزينها من حلى وعطور وأصباغ . وعلى الرغم من هذا فإن بعض الشعراء غير من ذكرنا لا تنعدم الإشارة عندهم إلى بعض هاتيك الأشياء .

ومهما يكن الأمر فإن المرأة فى هذه الفترة — كما يبدو من شعر بشار خاصة — كانت تلبس أردية مختلفات فيها الخز والمجسد والسابرى إلى جانب التحلى بالقلائد والعطور ، قال[٢] :

بينا كذا إذ برقت برقة بين رداء الخَزِّ والمجسد

---

(١) تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام ٤٠٤ .

(٢) ديوان بشار ٢ / ١٧٦ .

وقال[١] :

خُلقتْ مباعدةً مقاربة حَرْبا وقمّتْ صورةً عَجَبا
فى السابرىِّ وفى قلائدها مُنقادها عَسِرٌ وإنْ قربا[٢]
كالشمس إنْ برقت مجاسدها تحكى لنا الياقوت والذهبا

وقال[٣] :

من بنى مالك بن وهبان كالشا دن جَلَّى فى مِجْسد وعقود

وفى شعر ربيعة الرقى إن النساء كانت تلبس مروط الخز والصوف وتستعمل الوشاح[٤].

يؤكد بشار أن المرأة كانت تحسب حساباً كبيراً لمظهرها وزينتها إذ كانت تهتم كثيراً بنفسها ووسائل زينتها وتنفق عليها كثيراً من وقتها باستعمال أنواع العطور وانتقاء أصناف الملابس ، والحرص على إزالة ما يعلق ببدنها من شعر ونتفه ، وفى هذا المظهر الأخير إشارة إلى شىء حضارى جديد فى حياة المرأة ربما وجد فى شعر الغزل لأول مرة ، قال[٥] :

وأنتِ عما ألاقى فيك لاهية بالعطر والملبس القَزِّىِّ والسَّبَد[٦]

وقال[٧] :

أهذى بكم يقظان قد علموا وأبيت منك على هوى ذِكْر
وتَقلّبين وأنت لاهيـةٌ فى الخزِّ والقوهى والعطر

---

(١) ديوان بشار ١ / ١٧٦ ثم انظر أيضاً ٢ / ١٧٩ و ٣ / ٦٩ .
(٢) السابرى : الثوب الرقيق الذى يشف عما تحته من الثياب ، قيل إنه منسوب على غير قياس إلى سابور وهى كورة من كور فارس .
(٣) ديوان بشار ٢ / ٢٧٣ .
(٤) طبقات ابن المعتز ١٦٥ ، ١٧٠ .
(٥) ديوان بشار ٢ / ٣١٥ .
(٦) السبد : إزالة الشعر الذى فى جسد المرأة .
(٧) ديوان بشار ٣ / ٢٢٥ .

وفى النساء من كانت تستعمل حلل الدمقس والوشاح كما فى قول بشار [١] :

مُصورة فيها على العين فلتةٌ وكالشمس تمسى فى الوشاح وفى العِقدِ

وقوله [٢] :

أحوى المدامع زان قامته حُلل الدمقس تَظَلّ فى أود

كما يبدو أن المرأة فى هذه الفترة ليست نوعاً جديداً من الثياب اسمه « الأتْب » وهو مشقوق من غير جيب ولا كمين ، وقد ورد ذكره فى قوله بشار [٣] :

قامت تراءى لى لتقتلنى فى القرط والخلخال والإتْب

وفى قوله [٤] :

ما على النوم لو تعرضت فيه فبلوناك فى سِخَابٍ وإتب

ركز بشار أكثر من غيره أيضاً على ماكانت تستعمل المرأة من أصناف الحلى فذكر أنماطاً متعددة لها وخاصة ماكانت تضعه فى نحرها ، وقد أشار فى البيتين السابقين إلى القرط والخلخال وهى أنماط قديمة ، ثم أشار إلى نوع جديد اسمه (السخاب) وهو عبارة عن قلادة من قرنفل أو غيره بلا جوهر كانت تستعمله النساء فى هذه الفترة ، فتكون بذلك قد جمعت فى حليها بين الأنماط قديمها وحديثها . وكانت تستعمل الأقراط بأنواعها ، فهى إما من الدر والياقوت كما فى قوله بشار [٥] .

والدر والياقوت يحسدنها مُناطة فى الأوضح الأجيد [٦]

---

(١) ديوان بشار ٣ / ٨ .
(٢) المصدر السابق ٣ / ٢٧ .
(٣) المصدر السابق ١ / ٢١٤ .
(٤) المصدر السابق ١ / ٢٦٧ .
(٥) المصدر السابق ٢ / ١٧٦ ثم انظر ١ / ٢٠٥ أيضاً .
(٦) مناطة : معلقة .

وإما من الشذر والفريد كما فى قوله[١] :

كل بيضاء كالمهاة استعارت لك أمَّ الغزال عَيْناً وجيدا
زانه الشَّذْر والفريد على النحر نِظاماً بل زان ذاك الفريدا

وقوله[٢]:

وعلى الترائب درة فيها الزبرجد والفريد
ونَقارس قد زانها حَلَق ،غدائرها تصيد[٣]
وأَغَنَّ يَحْفِل عُصْفرا وكأنه جَمْرٌ وَقُود[٤]
والقرط فى مهلوكةٍ مجراه من جبل بعيد[٥]

فالمرأة التى ذكرها بشار كانت عقودها من زبرجد وفريد ، كما أنها كانت تضع على رأسها (النقارس) وهى أزهار صناعية على شكل الورد وهو مظهر حضارى آخر يشبه إلى حد بعيد ما تستعمله النساء فى أيامنا هذه من أصناف متعددة لهذه (التشكيلات) الصناعية . أما أصباغها فكانت من العصفر الذى يقرب لونه إلى الحمرة ويشبه الزعفران ، وكما كانت المرأة تصبغ وجهها بالعصفر كانت تخضب أطرافها بالحناء . قال أبو نواس[٦] :

قد سقتنى–والصبح قد فتق الليـ ـل – بكأسين ظبية حوراءُ
عن بنان كأنه قضب الفضـ ـة ، قنَّى أطرافها الحناء[٧]

---

(١) ديوان بشار ٢ / ١٨٩ .
(٢) المصدر نفسه ٢ / ٢١٥ – ٢١٦ .
(٣) النقارس : جمع نقرس وهو زهر صناعى يكون على صفة الورود تغرسه النساء فى رؤوسهن بدليل قوله (حلق) جمع حلقة من الشعر .
(٤) الأغن : الذى فى صوته غنة وشبه العرب المرأة بالظبى الأغن .
(٥) يرى الأستاذان اللذان راجعا تحقيق ابن عاشور لديوان بشار أن كلمة (جيد) أنسب من (جبل) فى عجز البيت بدليل المعنى وعدم وضوح الكلمة فى أصل المخطوط وهو ما نميل إليه لمناسبته للمعنى .
(٦) ديوان أبى نواس (طبعة صادر) ص ١٩ .
(٧) قنى : خضب .

وأشار بعض الشعراء غير بشار إلى تزين المرأة بالحلى والعطور، فقال مسلم راسماً بقوله صورة بديعة شخص فيها الجمادات وجعل منها كائنات تتحرك[١]:

إذا ما مشت خافت نميمة حليها تدارى على المشى الخلاخيل والعِطْرا

وقال الحسين بن مطير :

مخصرة الأوساط زانت عقودها بأحسن مما زينتها العقود

ولم ينس بشار مواطن التزين الأخرى عند المرأة فذكر فى البيت التالى ما كانت تضع فى ساقها وعضدها ومعصمها فقال[٢]:

يشْبَع الحَجْل والدماليج والسُّو رُ بِجمٍّ يَلْبِسْنَ بالعين طَبّا[٣]

وذكر ربيعة الرقى بعض هذه الحلى فقال[٤]:

قد وسدتنى اليداليمنى ويارقها ودُمْلُجَ العضُد اليسرى على عضدى[٥]

ومن أحدث مظاهر الزينة آنذاك بالإضافة إلى ما تقدم من استعمال (النقارس) و(السخاب) ما كانت تستعمله المرأة من عقود منظومة من الأزهار والورود ولعله (السخاب) نفسه كالذى ذكره مسلم بن الوليد من أنه عانق فى جيد صاحبته عقداً منظوماً من أزهار القرنفل :

وإن شئت أن ألتذ نازلت جيدها فعانقت دون الجيد نظم القرنفل

وهكذا تكون امرأة القرن الثانى قد سبقت المرأة المعاصرة فى مثل تلك العقود الزهرية الآنية فى خيوط ووضعها فى النحور، بحيث نجد فى هذه الأيام أنماطاً مختلفة لهذه العقود العصرية تتزين بها النساء وبخاصة فى أمسيات الصيف الجميلة وهن خارجات للنزهة مع أزواجهن ومحبيهن وأصدقائهن .

(١) ديوان مسلم ٤٥ ثم انظر ٢٠١ أيضاً .
(٢) ديوان بشار ١ / ٣٨٢ ثم انظر ٢ / ١٠٨ أيضاً .
(٣) الطب : السحر .
(٤) طبقات ابن المعتز ١٧٠ .
(٥) اليارق : نوع من الأسورة . الدملج : حلى يلبس فى المعصم .

المظاهر الحضارية فى الغزل الحسى :

أشرنا فى خلال الحديث عن هذا الغزل إلى أكثر المظاهر القديمة فيه وخاصة فيما يتعلق بالأوصاف الحسية وملابس المرأة وأدوات زينتها ، وعرضنا من خلال ذلك لبعض المظاهر الحضارية التى تضمنتها بعض الأبيات التى استشهدنا بها فى كلامنا هنا وهناك ، واستكمالاً لهذا نفرد لها هذا المكان على أنه سيجىء الحديث عن المظاهر الحضارية فى الغزل العفيف عند العباس بن الأحنف وعند غيره من شعراء هذا الاتجاه — إن وجدت — . وعلى أية حال فقد ظهر أثر الحضارة التى وصل إليها مجتمع القرن الثانى فى الشعر وعند شعراء الغزل خاصة ، ويمكن حصر هذه المظاهر فيما يلى :

١ — الهدايا :

يتضح هذا المظهر أكثر ما يتضح عند العباس بن الأحنف كما هو آت ، لكننا لا نعدم أن نجد نماذج له عند شعراء الغزل الحسى الذين امتازوا على ابن الأحنف بأن الهدايا كانت عندهم من جانب واحد ، فالمرأة دائماً هى المهدية ، إذ لم نعثر عندهم على ما يدل أنهم كانوا يهدون صاحباتهم ، ولعل فى هذا تأكيداً إلى ما أشرنا إليه من عدم الصدق فى حبهم وتعشقهم ، لأن الهدايا إنما تقوم فى الغالب أدلة على الود والمحبة والصفاء، وحتى هذه الهدايا من لدن النساء لم تكن بذات قيمة كبيرة ولم تكن تلقى قبولاً عند الشعراء أيضاً . فبشار يذكر أن عبدة كانت تهدى إليه الطيب ، ولكنه لم يكن مرتاحاً لمثل هذه الهدية لأنه كان يطمع فى أن تهديه شيئاً أحسن من الطيب وهو شربة من ريقها ، وهو بهذا يؤكد حسيته ونهمه وتطلعه إلى الجسد دون الروح ، قال :

أهديت لى الطيب فى ريحان ساحرةٍ ... يا عبد ريقك أشهى لى من الطيب
أهدى لنا شربة منه نعيش بها ... إن كنت مُهْدية رَوْحاً لمكروب

ووُجدتْ مثل هذه النظرة إلى الهدية عند مسلم بن الوليد الذى يذكر أن

صاحبته كانت تهدى إليه ضرباً من الفاكهة يدعى (التُّرنْج) ولكنه كان يفضل أن تهديه وصالها ، فقال[١] :

جزى الله من أهدى الترنج تحية ومنَّ بمن يَهْوى عليه وعجّلا
أتتنا هدايا منه أشْبَهن ريحه وأشْبه فى الحسن الغزال المكحلا
ولو أنه أهدى إلىّ وصاله لكان إلى قلبى ألذَّ وأفضلا

٢ — المراسلة والرسائل :

أكثر ما يتضح هذا المظهر أيضاً عند العباس بن الأحنف . ولقد سُبق شعراء القرن الثانى إلى هذا بما وجد عند عمر بن أبى ربيعة وغيره وهو ماسيشار إليه عند الحديث عن المظاهر الحضارية فى شعر العباس ، غير أنه لا بد من القول إن وجود الظاهرة قبل القرن الثانى ينفى ما ذهب إليه الأستاذ الطاهر بن عاشور من أن بشاراً نظم الشعر « على طريقة لم تكن معروفة ، وهى طريقة المراسلة »[٢] وذلك فى أبيات بعث بها إلى عبدة على شكل رسالة ، بدأها على عادة كتاب الرسائل : « من فلان إلى فلان. . » ثم ثنى بقولهم : « سلام الله عليك» وأردف بقولهم: «أما بعد . . . .» ثم خلص إلى مضمون الرسالة فقال[٣]:

من المشهور بالحب إلى قاسية القلب
سلام الله ذى العرش على وجهك يا حبى
فأما بعد ، يا قُرّ ة عينى ومنى قلبى
وياانفسى التى تسكـ (م) ـن بين الجَنْب والجنب
لقد أنكرتُ يا عَبْد جفاءً منك فى الكُتْب
أعنْ ذنب ولا والله (م) ـمٍ ما أحدثت من ذنب
ولا والله ما فى الشر ق من أنثى ولا الغرب
سواك اليوم أهواها على جدٍّ ولا لعْب

---

(١) ديوان مسلم ٣٣٥ والشعر والشعراء ٢ / ٨٤٢ .
(٢) مقدمة ديوان بشار ١ / ٣٩ — ٤٠ .
(٣) ديوان بشار ١ / ٢٠٦ .

ولبشار على هذا الأسلوب أيضاً مقطوعة ثانية فى بيتين اثنين وجهها إلى أهل إحدى صواحبه ، وتخفف فيها مما التزمه فى الرسالة السابقة من ملتزمات كتاب الرسائل فقال[١] :

من المفتون بشار بن برد إلى شيبان كهلهم ومرد
فإن فتاتكم سلبت فؤادى فنصف عندها والنصف عندى

وجدت المقطوعتان السابقتان كما ترى عند بشار على شكل رسالة ، أما العباس ابن الأحنف — كما سيأتى — فقد وجد عنده هذا النوع ، ونوع آخر يحكى مضمون الرسالة فحسب . لم يقتصر أمر المراسلة والرسائل بين الشعراء وصواحبهم على بشار والعباس ، ولكن توجد إشارات إلى تبادل الكتابة والرسائل عند شعراء آخرين ، فابن ميادة يشير إلى أنه بعد أن أنبتت الصلة بينه وبين صاحبته (أم جحْدر) لم يبق من آثار الود القديم بينهما إلا ما حوته سطور الرسائل القديمة ، قال[٢] :

فيا ليت رث الوصل من أم جَحْدر لنا بجديد من أولاك البدائل
ولم يبق مما كان بينى وبينها ، من الود إلا مُخْفيات الرسائل

أما أبو النضير — الذى تقدم ذكره — والجارية المشهورة (عنان) ففى شعرهما ما يدل على أنهما كانا يتكاتبان ويتراسلان ، قال أبو النضير :

إن لى حاجة ، فرأيك فيها لك نفسى الفدا من الأوصاب
وهى ليست مما يبلغه غيـ ـرى ولا أستطيعه بكتاب

فأجابت عنان :

أنا مشغولة بمن لست أهوا هُ وقلبى من دونه فى حجاب
فإذا ما أردت أمراً فأسرر هُ ، ولا تجعلَنّه فى كتاب

وقد كان أبو نواس يكتب إلى بعض صاحباته برسائل ويبعث بها مع رسله

(١) ديوان بشار ٤ / ٣٨ .
(٢) الأغانى ٢ / ٢٩٣ .

كما يتضح من قوله[١] :

رسولى قال : أوصلت الكتابا ولكن ليس يعطونا الجوابـا
فقلت : أليس قد قرءوا كتابى فقال: بلى، فقلت : الآن طابا
فأرجو أن يكونوا هم جوابى بلا شك إذا قرءوا الكتابا

وكانت ثمة مراسلات بين الشاعر ربيعة الرقى وصاحباته ، ذكر أن إحداهن سعاد كانت ترسل إليه رسائل مع وصائفها لا تفصح فيها عن قصدها ولا تحاول إفهامه مباشرة ، ولكنه يذكر أنه كان يفهم ما تريد ولا يخفى عليه شيء ، قال[٢] :

دست سعاد رسولًا غير متهم وصيفة فأتت إتيان مُنكَتِم
جاء الرسول بقرطاس بخاتمه وفى الصحيفة سِحْر خُطَّ بالقلم
فيه فتون هوًى ظلت تغيبه على الجهول وما يخفى على الفَهِم
وقد فهمت الذى أخفت فقلت لها : بوحى بلا ونعم من بَيِّن الكَلِم

وإلى مثل هذه التعمية فى الرسائل من جانب المرأة أشار مسلم بن الوليد فى قصيدة كشف فيها عما كان بينه وبين صاحبته « سحر » من رسائل ومكاتبات وبيّن أنها كانت تكتب إليه بقضيب من شجر الرند طيب الرائحة ثم بدأ القصيدة على عادة كتاب الرسائل أيضاً فقال[٣] :

كتاب فتىً أخى كلف طروب إلى خَوْد منعّمةٍ لعوب
صبوت إليك من حزن وشوق وقد يصبو المحب إلى الحبيب
وقد كانت نجيب إذا كتبنا فيا سَقْياً ورعياً للمجيب
تخط كتابها بقضيب رند ومسك كالمداد على القضيب
كتاب فيه كَمْ وإلى وما إن أقضىّ من رسائلها عجبى

(١) ديوان أبى نواس (آصاف) / ٣٦٦ .
(٢) طبقات ابن المعتز ١٦٦ .
(٣) ديوان مسلم ١٩١ .

تُعميه على ذى الجهل عَمْدًا ولا يخفى على الفطن اللبيب

ومما امتاز به ربيعة أنه التفت إلى (الحمام) فى عصره وطلب إليه أن يبلغ سلامه إلى محبوبته فى العراق[١]، على حين كان الشعراء قبله وفى عصره أيضاً يلتفتون إلى الرياح ويطلبون إليها ذلك. كما تمنى الشاعر نفسه أن يُسخِّر الحمام ليكون رسولا بينهما ينقل رسائلهما فقال[٢]:

ويا ليت الحمام مسخرات لنرسل فى رسائلنا الحماما
لعل حمامةً تهدى إلينا كتاباً منك نجعله إماما

٣ — مظاهر فى الأوصاف :

أكثر الشعراء فيما تقدم من الأوصاف القديمة وربما مزجوا بعضها بالأوصاف الحديثة التى استمدوها من واقع عصرهم كالذى أشرنا إليه عند مسلم بن الوليد فى قوله :

وردفها ثقيل بخصرها يميد
كأنه كثيب لبده الجليد

ومثل هذا ما نجده فى قوله[٣]:

نهضت إليه فقبلته وعانقته وحللت الإزارا
وقد زادنى طربا نحوه مضاجعة الياسمين البهارا

فمضاجعة الياسمين للبهار صورة حديثة رسمها مسلم بريشة من صنع عصره. ومن هذا الجديد تشبيه بشار لثغر صاحبته بالثلج ولكنه أفسد هذه الصورة الحضارية الجديدة والاستعمال الجديد باستعماله لفظة (جَشّاب) للندى وإن كان يبدو أن الشعر اضطره إليها اضطراراً فقال[٤]:

---

(١) طبقات ابن المعتز ١٦٤ .
(٢) المصدر نفسه ١٦٤.
(٣) ديوان مسلم ١٧٣ .
(٤) ديوان بشار ١/٢٠٨ .

تريك فى القول جشاباً وإن ضحكت أرتك من ثغرها المثلوج جشابا

ومن هذا القبيل التشبيه الجديد لما بين أسنان صاحبته ، إذ مزج فيها بين (الثلج) و (الراح) و (التفاح) فى قوله[١] :

كأن ثلجاً بين أسنانها مستشركا راحاً وتفاحا

ومن الأوصاف الجديدة عند مسلم بن الوليد تشبيه عينى صاحبته بالراح وحديثها بالريحان ولون خديها بلون الورد فى قوله[٢] :

عيناك راحى ، وريحانى حديثك ولون خديك لون الورد يكفينى

إذ نهانى عن خمر الطلا حرج فخمر عينيك يغنينى ويجزينى

ومن المظاهر الحضارية الحديثة فى الوصف ما تقدمت الإشارة إليه من افتتان الشعراء وبخاصة بشار بحديث النساء ووصفه وتشبيه تشبيهات مختلفة أتينا على ذكرها[٣] وربما كان من أهم المظاهر الجديدة فى الغزل ما جرى عليه بشار بن برد فى الاستعاضة عن حاسة البصر فى الاهتداء إلى الجمال بحاسة السمع أولا ، وجعل الفيصل فى الأمر للقلب ثانياً . وهذا عنصر من عناصر التعويض التى يقرها علم النفس الحديث[٤] . وقد كرر بشار هذه الظاهرة فى شعره غير مرة فقال[٥] :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

قالوا : بمن لا ترى تهذى ، فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وقال[٦] :

قالت عقيل بن كعب إذ تَعَلَّقَها قلبى فأضحى به من حبها أثر

---

(١) المصدر السابق ٢ / ١٥١ .
(٢) ديوان مسلم ٣٨٢ .
(٣) انظر : ص ١٥٥ — ١٥٦ من هذا الكتاب .
(٤) انظر : سيكولوجية المرضى وذوى العاهات . لمختار حمزة ص ١٢٣ .
(٥) ديوان بشار ٤ / ٢٠٦ .
(٦) المصدر السابق ٣ / ٩ .

أنىَّ ولم ترها تصبو فقلت لهم : إن الفؤاد يرى مالا يرى البصر

وقال[١] :

فقلت : دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبا لقلب لا بالعين يبصر ذو الحب

فما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب

٤ — مظاهر أخرى :

من المظاهر الأخرى ما يشير إليه كل من بشار وأبى نواس من تقدّم الناس ورقيهم فى تلك الفترة فى الأدوات المنزلية والأثاث ، فقد كان السرير معروفاً عندهم وعليه كانوا يضاجعون النساء كما فى قول بشار :

يا حسنها إذ تقول مازحة ونحن فوق (السرير) نعتفج

كما أن الفرش والأسرَّة كانت تجهز بحلل محشوة بالأطايب والعطور وغيرها من الأشياء الجميلة كما فى قول أبى نواس :

فاستقلت على الفراش ، عليه حلل حشوهن طيب ونور

ومن المظاهر الحضارية أيضاً ماوجد عند مسلم بن الوليد الذى أشار إلى ترف صاحبته وتحضرها فى استعمال وسائط النقل الحديثة عندما ذكر أنها رحلت على سفينة فى نهر الفرات وليس على جمل أو ناقة كما كان يفعل القدماء ، قال[٢] :

ياليت ماء الفرات يخبرنا : أين تولت بأهلها السفن

ما أحسن الموت عند فرقتهم وأقبح العيش بعد ما ظعنوا

وقد سبق للشاعر نفسه أن استقل السفينة إلى ممدوحيه بعكس ما كان يفعل القدامى ، وعد هذا من تجديد مسلم فى قصيدة المديح كما أسلفنا فى الفصل الثانى .

أما ربيعة الرقى فيبدو أن صاحبته كانت أقل درجة فى ترفها وتحضرها وغناها من

---

(١) المصدر السابق ٤ / ١٢ .

(٢) ديوان مسلم ١٧٣ .

صاحبة مسلم ، ولكنها كانت أرق من صواحب الشعراء القدامى ، يخبرنا الشاعر أنها رحلت على (بخلة) فلا هى ركبت الناقة أو البعير ، ولا ركبت السفينة فكانت فى منزلة وسط بين القديم والحديث ، ومهما كان الأمر فإنها واسطة جديدة فى هذا القرن ، قال الشاعر[١] :

وما أدماء جوذرَها تراعى ... وتدنو حين يُسْمِعُها بُغاما
بأحسن منك يوم رحلتِ عنّا ... وقد بلَّتْ مدامعك اللِّثاما
وتحْتُكِ بغلةٌ زينَتْ بِرَحْل ... مواشِكةٌ تنازعك اللجاما[٢]

---

(١) طبقات ابن المعتز / ١٦٥ .
(٢) مواشكة = سرعة .